التاريخ المدني

البيع والكنائس والأديرة
بيوت العبادة عند الأقدمين

لم يخلف التاريخ الصحيح مستندًا يركن إليه في وصف بيوت العبادة عند قدماء سكان الشام أيام كانوا يعبدون الأصنام والأوثان، ثم بعد أن أصبحوا يعبدون النيران، فلا نعرف إذًا شيئًا يعتد به عن هياكل الفينيقيين في صور وصيدا وبيروت وجبيل ولا عن هياكل مشارف الشام الجنوبية ولا عن بيوت النيران في حلب ولا عن بيوت العبادة عند الحثيين والبابليين والآشوريين ولا عن هيكل الرب مرناس الذي كان يعبد في غزة، ويحجون إلى هيكله من الأقطار ولا عن معبد المشتري (جوبيتر) الذي أنشأه أدريانوس الروماني في جبل جرزيم فوق نابلس، ولا عن هياكل المشتري معبود الرومان الذي وجد في السخنة بين تدمر ودير الزور، ولا عن هيكل اليونان في أنطاكية، ولا عن هيكل بزيزة بالغرب من كوسبة في لبنان، ولا عن بعل مرقد في أطلال دير القلعة قرب بيت مري بلبنان، ولا عن هيكل الزهرة في أفقة في جبل كسروان. والهيكل الباقي من هياكل القدماء هو هيكل بعلبك وقليل أمثاله جدًّا مما صبر على ضربات الدهر.

أمَّا كنائس اليهود فقد تبين أنهم شرعوا بإنشاء كنيس لهم في سبي بابل يجتمعون فيه ويتعبدون. وأهم ما كان من كنائسهم كنيسهم في القدس بنوه بعد رجوعهم من بابل بجانب المعبد وقسموه قسمين قسم للرجال

وقسم للنساء، ثم كثرت الكنائس في المدن الصغرى والكبرى في كل بلد كان فيها لليهودية معتقدون وأنصار. ولكل كنيس خزانة مقدسة تقام في داخل البناء على خشب وتجعل متجهة نحو القدس وهي مغشاة بالكتان وفيها الطوامير المقدسة وأمام الخزانة ستار يذكر بستار المعبد، وفي وسطه أمام الخرانة شيء أشبه بمنبر.

هذا غاية ما يقال في هياكل القدماء وبيوت عباداتهم، وكيف السبيل إلى وصف المعابد القديمة، والتاريخ لا يعرف شيئًا يعتد به عن العالم الإسرائيلي بل ولا عن نصارى القرون الأولى، وكل ما يعرف عن موسى وعن قضاة إسرائيل وداود أو المسيح والحواريين لا يكاد يملأ سوى صفحات قليلة، والنصرانية نفسها لم تنتشر في الشام إلا في اقرن الرابع للميلاد على يد قسطنطين أو أم قسطنطين بن قسطنطين باني القسطنطينية وهو الذي بنى كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال: إنه بني في زمانه اثني عشر ألف كنيسة.

ولا بدَّ لنا قبل وصف الكنائس والبيع والأديار أن نعرفها تعريفًا يقربها من جميع الأذهان ولا يوقع فيها لبسًا؛ فالدير كما قالوا في تعريفه: بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون في المصر الأعظم إنما يكون في الصحاري ورءوس الجبال، فإن كان في المصر كانت كنيسة أو بيعة. وربما فرق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود، والبيعة للنصارى. وقال بعضهم: البيعة متعبد النصارى وقيل: كنيسة اليهود. والأولى أن تطلق الكنيسة على متعبد النصارى والكنيس على متعبد اليهود. وجاءت لفظة الدير من الدار والجمع أديار والديراني صاحب الدير والذي يسكنه ويعمره، ويقال له ديّار. ويقال: دَيْر ودِيَرة وأيار وديران ودارة ودارات وديّرة ودير ودور ودوران وأدوار ودوَّار وأدورة.

منشأ الأديار والبيع

أنشئت الأديار الأولى في الشام، فهي موطنها الأول؛ ذلك أن من المسيحيين من أخذوا يألفون العزلة لأول ظهورهم في صعيد مصر وجبال أنطاكية ينقطعون للنسك. ولما زاد عدد هؤلاء الناسكين دعت الضرورة إلى إنشاء أكواخ منفردة أشبه بعمرات جعلت برئاسة رئيس. وأنشئت دور عظيمة يعيش فيها أولئك الزهاد عيشة مشتركة يجمعهم سقف واحد وتسيرهم إدارة رئيس واحد. ثم اتحدت تلك الأكواخ والبيوت، وأنشئت أديار في المدن تولاها الأساقفة وانتقل ذلك إلى الغرب. وكما كانت الشام منشأ الأديار كذلك كانت أول من وضع هندسة الكنائس ذات القباب، فقد جرت في هندستها لأول مرة على مثال المعابد القديمة، فالشام إذًا أول من أنشأ الأديار والكنائس كما قامت فيها النصرانية واليهودية.

قلنا: إنه يرد إنشاء الكنائس إلى عهد قسطنطين وقد بدأت البيع بالتكاثر في سنة (٣٣٠) للميلاد، وذكر بعض المؤرخين أن ثيودوسيوس الكبير حول بعض هياكل الوثنيين في بعلبك إلى كنائس فبنى كنيستين في القلعة إحداهما في وسط البهو الكبير القائم أمام هيكل الشمس. وقال المسعودي: إن هيلاني بنت بإيليا الكنيسة المعروفة بالقيامة في هذا الوقت الذي يظهر منها النار في يوم السبت الكبير الذي صبحه الفصح وكنيسة قسطنطين وديارات كثيرة للنساء والرجال على الجبل المطل على مدينة بيت المقدس المعروف بالطور، وهو بإزاء قبة اليهود وعمرت مدينة إيليا عمارة لم يكن قبلها مثلها، ولم يزل ذلك عامرًا إلى أن أخربته الفرس حين غلبت على مصر والشام.

تكاثرت الكنائس والأديار في الشام فلم يمض على انتشار النصرانية قرنان حتى زاد عدد الأدبار والبيع على صورة مستغربة، حتى أن الغسانيين ولعوا أيضًا بعمارة الأديار في الجزء الذي ارتفع سلطانهم عليه في الجنوب على عهد ملوك الروم فشادوا دير حالي ودير أيوب ودير الدهناء ودير ضخم ودير النبوة. واشتهر الغساسنة بإقامة الديرة والبيع وكانوا كما قيل يعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه ويجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب، ومثلهم كان شأن آل المنذر بالحيرة وبني الحارث بن كعب بنجران من بيوتات العرب.

أعظم الكنائس وأقدمها

ويظهر أن كنيسة القبر المقدس في القدس هي أقدم كنيسة في الشام قامت في مكان نظر إليه في كل وقت بأنه مقدس. وذكر الأسقف أوسابيوس القيصري (٣١٤-٣٤٠) وهو والد تاريخ الكنيسة أن في الحفريات التي جرت على عهد الملك قسطيطين اكتشفت مغارة المخلص المقدسة. وزاد المؤرخون المحدثون أن الملكة هيلانة والدة قسطنين المتوفاة نحو سنة (٣٢٦م) زارت القدس واكتشفت القبر المقدس وصليب يسوع، فالبنات التي أقيمت في ذاك المكان سنة (٣٣٦م) هي من البناء المدور قد دعي كنيسة القيامة ومؤرخو المسلمين يسمونها كنيسة القمامة، كما كان هناك كنيسة كاتدرائية خاصة برمز الصليب وقد أحرق الفرس هذين المكانين سنة (٦١٤م)، وأعاد هرقل بناء ما كان خرب كسرى من الكنائس في مصر والشام، وذكر المؤرخون أن الفرس خربوا كنائس القدس بمعاونة اليهود، ومما خربوا كنيسة الجسمانية وكنيسة المنية وظلتا خرابًا إلى القرن الرابع من الهجرة، ولما انصرفوا عمر النصارى كنيسة القيامة والمقبرة والاكرانيون ومار قسطنطين وأحدث الراهب مودست رئيس دير تيودوس في سنة (٦١٦ و٦٢٦) كنيسة القيامة وكنيسة

الصليب وكنيسة الجلجة وأُضيفت سنة (٦٧٠) إلى الجنوب كنيسة للعذراء.

ولما فتحت القدس وجاء الخليفة عمر بن الخطاب أدركته الصلاة فلم يرض أن يصلي في كنيسة القيامة؛ لئلا يكون بعده للمسلمين حجة في أخذها وبني مقابلها جامعًا ومصلى، ولما تنصر الروم على رواية ابن بطريق وبنت هيلانة أم قسطنطين الكنائس في بيت المقدس كان موضع الصخرة وحولها خراب فترك، ورموا على الصخرة التراب، وهذه التي بني عليها المسجد الأقصى، ثم ذهب الخليفة إلى بيت لحم فحضرته الصلاة فصلى داخل الكنيسة عند الحنية القبلية، وكانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء، وكتب عمر للبطرك سجلًا أن لا يصلي في الموضع من المسلمين إلا رجل واحد بعد واحد ولا يجمع فيه صلاة ولا يؤذن فيه ولا يغير فيه شيء. وكنيسة بيت لحم من الكنائس القديمة المشهورة أنشأها قسطنطين سنة (٣٣٠) فكانت كاتدرائية كبرى، وأنشأ يوستنيانوس حيطانها وأقيمت فيها أديار وكنائس كثيرة حتى أطلق عليها سنة ستمائة للميلاد اسم المكان الزاهر.

ومن أشهر كنائس الشام كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة مار يوحنا مكان الجامع الأموي اليوم، صالح المسلمون على نصفها الشرقي لأنهم اعتبروا دمشق بما فتح صلحًا وعنوة، فكان النصف من هذه الكنيسة العظمى، التي كانت أكبر معابدهم على رواية ابن كثير، في النصف الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف. وكان بدمشق خمس عشرة كنيسة كتب بها عمر بن الخطاب كتاب أمان وأقر ما بأيدي النصارى أربع عشرة كنيسة، فجعل أبو عبيدة من الكنيسة الكبرى مسجدًا، فكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الأصلي في القبلة؟ قال جرجس بن العميد: وقيل: إن الوليد بذل للنصارى في كنيسة مار يوحنا أربعين

ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوا المال فأخذها فأخربها ولم يعطهم شيئًا. وفي تواريخ دمشق أن النصارى رفعوا إلى عمر بن عبد العزيز في خلافته ما بيدهم من عهد أبي عبيدة بن الجراح من أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وأن الوليد أخذ كنيسنهم بغير حق قهرًا، فلما رأى عمر ذلك منهم دفع لهم مالًا يرضيهم به حتى بلغ مائة ألف فأبوا، فكتب إلى محمد بن سويد الفهري أن يدفع إليهم كنيستهم أو يرضيهم في ذلك. فلما وصل كتاب عمر إلى دمشق أعظم الناس ذلك وفيهم يومئذ بقية من أهل الفقة، فشاورهم محمد بن سويد فقالوا: هذا أمر عظيم ندفع إليهم مسجدنا، وقد أذنا فيه بالصلاة وجمعنا فيه يهدم ويعاد كنيسة. فقال رجل منهم: هنا مسألة، فإن لهم كنائس عظامًا حول مدينتنا وهي دير مران والكنيسة بباب توما وغيرها من الكنائس إن أحبوا أن نعطيهم كنيستهم فلا يبقوا حول مدينة دمشق ولا بالغوطة كنيسة إلا هدمت أو نبقي لهم جميع كنائسهم ويتركوا هذه ونسجل لهم بذلك سجلًا، فرضي النصارى على أن يسجل لهم الخليفة سجلًا منشورًا بأمان على ما بدمشق والغوطة من كنيسة أن تهدم أو تسكن. وهكذا استحالت كنيسة مار يوحنا إلى مسجد جامع للمسلمين أخذوه بحكم الفتح وأرضوا أبناء ذمتهم على كل حال. وما ندري كيف آل إلى هؤلاء من اليهود أو إلى النصارى من الصابئة وغيرهم. ولعل التقليد القائل بأن في الجامع رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام أتي من كون الكنيسة كانت على اسم مار يوحنا، ويوحنا هو يحيى والله أعلم.

وخاصم النصارى حسانًا بن مالك الكلبي إلى عمر بن عبد العزيز في كنيسة بدمشق فقال له عمر: إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك إليها. وقال غيره: خاصمت العرب في كنيسة بدمشق يقال لها: كنيسة ابن نضر كان معاوية أقطعهم إياها فأخرجهم عمر

بن عبد العزيز منها فدفعها إلى النصارى، فلما ولي يزيد ردها إلى بني نضر. وفي كتاب سجل يحيى بن حمزة أن النصارى ذكروا لعمر بن عبد العزيز أن عتقاء العرب قد سخروا بهم وبرئيسهم وبدينهم وجماعتهم من أهل القرى وأن أولئك العتقاء أحلاف وفرق، وأنهم غلبوا على كنائسهم وسألوا الوفاء لهم بما في عهدهم وبما في الكتاب الذي كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم فأمرهم أن يأتوا بحجتهم فأتوا بكتاب خالد بن الوليد فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها أعطاهم أمانًا لأنفسهم ولأموالهم وكنائسهم لا تهدم ولا تسكن لهم على ذلك ذمة الله وذمة الرسول عليه الصلاة والسلام وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، لا يعرض لهم أحد إلا بخير إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد بهذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص وعياض بن غنم ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح ومعمر بن غياث (عتاب) وشرحبيل بن حسنة وعمير بن سعد ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن الحارث وقضاعي بن عمر، وكتب في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة».

قال يحيى بن حمزة: فنظرت في كتابهم فوجدته خاصة لهم، وفحصت عن أمرهم فوجدت فتحها بعد حصار، ووجدت ما وراء حائطها آثارًا وضعت لدفع الخيل ومراكز الرماح، ونظرت في جزيتهم فوجدتها وظيفة عليها خاصة دون غيرهم، ووجدت أهلها عند فتحها رجلين رجلًا روميًا قتلته الحرب أو نفته، ومساكنهم وكنائسهم قسمة بين المسلمين معروفة لا تخفى، ورجلًا من أهلها حقن دمه هذا العهد، فمساكنهم وكنائسهم مع دمائهم لهم لم تسكن، ولم تقسم معروفة ليس تخفى، فقضيت لهم بكنائسهم حين وجدتهم أهل هذا العهد وأبناء البلد، ووجدت من نازعهم لفيفًا طرأ وذلك لو أنهم أسلموا بعد فتحها كان لهم

صرفها مساجد ومساكن. فلهم في آخر الدهر ما لهم في أوله وأثبت في الأصول قبل وأشهد الله عليه وصالح المؤمنين، وفاء بهذا العهد الذي عهده لهم السابقون الأخيار فلم يكن بينهم خاصة في ذلك اختلاف نظر لهم ... وقضيت لمن نازعهم بما كان لهم فيها من حيلة أو آنية أو كسوة أو عرضة أضافوا ذلك إليها أن يدفع ذلك إليهم بأعيانها إن قدروا عليه وسهل قبضه، أو قيمة عدل يوم ينظر فيه شهد الله على ذلك اهـ.

هذا ما كان من المسلمين مع أبناء ذمتهم ومراعاة العهود التي قطعوها على أنفسهم. ولم تزل سيرة خلفاء بني أمية وبعض بني العباس مع النصارى وكنائسهم سيرة الخليفة الثاني والفاتحين من الصحابة الكرام. فقد بنى أبو جعفر المنصور كنيسة في دمشق لبني قطيطاني الغوريق، ذكر ذلك ابن عساكر، ولما وقع حريق في كنيسة مريم بدمشق أيام أحمد بن طولون أمر أن تفرق على أهل الحريق سبعون ألف دينار ففضل عنهم أربعة عشر ألف دينار فأمر أن تفرق عليهم على قدر سهامهم، ثم أمر ففرق على أهل دمشق وغوطتها مال عظيم فأقل من أصابه من ذلك دينار.

مبدأ هدم الكنائس

أول حادث وقع في تخريب الكنائس قبل الإسلام كان لما ثار بفلسطين أهل السامرة وهدموا في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة الكنائس كلها وأحرقوها من بيسان إلى بيت لحم وقتلوا النصارى وعذبوهم عذابًا شديدًا، فأعاد يوستنيانوس الكنائس وكتب إلى عامله في فلسطين أن يعفي أهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبني بيمارستانًا للغرباء في القدس.

وبقدر ما رأى النصارى من عدل المسلمين معهم أيام عزهم أخذ بعض ملوكهم بعد القرن الثالث يحكمون العواطف بدل العقل في

الكنائس والبيع، وكان من أثر ذلك أن نالت السياسة من بيوت العبادة فكان إذا أحس القائم بأمر المسلمين أن قومه في شدة في ديار الحرب انتقم من أهل ذمته في ديار الإسلام، وسلط العامة من طرف خفي ليخرجوا كنائس النصارى وبيعهم.

قال القلقشندي: وفي السنة الأخيرة من رياسة البطريرك قسيمًا وهي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ونهبوا ما فيها وتتبعوا كنائس اليعاقبة والنساطرة. وقال ابن بطريق: إن هذه الحادثة وقعت في رجب سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة؛ وذلك أن المسلمين في دمشق ثاروا فهدموا كنيسة مرتمريم الكاتوليقية، وكانت عظيمة كبيرة حسنة أنفق فيها مائتا ألف دينار، ونهبوا ما كان فيها من آنية وغير ذلك من حلي وستور، ونهبت ديارات وخاصة دير النساء الذي كان في جانب الكنيسة وشعثوا كنائس كثيرة للملكية، وهدموا كنيسة النسطورية. وثار المسلمون بالرملة وهدموا للملكية فيها كنيستين كنيسة مار قزماس وكنيسة مار كورقس وهدموا كنيسة عسقلان وقيسارية وذلك سنة (٣١١). وثار المسلمون بكنيسة بيت المقدس وأحرقوا أبواب كنيسة قسطنطين القبلية سنة (٣٢٥).

وكان الداعي إلى ذلك ما وقع من اضطهاد المسلمين في الروم على الغالب فلم يجد ملوك الإسلام واسطة لتخفيف الشر الواقع على رعاياهم من أهل الإسلام إلا بالضغط على النصارى في ديارهم والتأثير في ملوك النصارى بضربهم في أكبادهم في كنائس هي مهوى قلوب أبنائهم في بيت المقدس وما إليها بدليل أن ابن بطريق نفسه قال بعد إيراد تلك الحوادث: وقع بين الروم والمسلمين هدنة مرضية في سنة ست وعشرين وثلاثمائة وقال في حوادث السنة التالية: إن المسلمين ثاروا في عسقلان فهدموا كنيسة كبيرة تعرف بكنيسة مريم الخضراء ونهبوا جميع ما فيها

وأحرقت وعاضد المسلمين اليهود في هدمها. وكان اليهود يشعلون النار في الحطب ويجرونه بالبكر إلى أعلا السقوف حتى يحرقوها وينحل رصاصها وتقع عمدها وخربت الكنيسة وبقيت خربة. وروى أيضًا أن الصناحي والي القدس اضطهد بطريرك القدس فاستعدى عليه ملك مصر فأعداه فلم يستمع الوالي لذلك واختبأ البطريرك في كنيسة القيامة فهاجمها الوالي وأحرقوا أبوابها وسقطت القبة، وتوجه الرعية إلى كنيسة صهيون وأحرقوها ونهبوها. وهدم اليهود وأخربوا أكثر من المسلمين.

وأهم ما نال الكنائس في الشام من الأذى، كان على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي فإنه لم يبق في مملكته ديرًا ولا كنيسة إلا هدمها. ففي سنة (٣٩٨) كتب الحاكم إلى دمشق بهدم كنيسة السيدة القاتوليكي فهدمت، وكتب إلى والي الرملة بهدم كنيسة القيامة في القدس وإزالة معالمها والقضاء على آثارها، وهدم الاقرانيون كنيسة ماري قسطنطين وسائر ما اشتملت عليه حدودها واستقصوا في إزالة الآثار المقدسة، وكان في جوار المقبرة دير للنساء يعرف بدير السري فهدم أيضًا. وكان ابتداء نقضها سنة أربعمائة ووضعت اليد على الأملاك والأوقاف وجميع ما في تلك الكنائس من آلاتها وحلاها.

وعاد الحاكم بعد أن ضرب النصارى في كنائسهم في جميع أرجاء مملكته فأعطاهم عهدًا كما كان يعطي الخلفاء العادلون، ومنها هذا المنشور الذي أورده ابن بطريق:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر أمير المؤمنين بكتب هذا المنشور لنيقيفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من إجابة رغبته، وإطلاق بغيته، من صيانته وحياطته، والذب عنه وعن أهل الذمة من نحلته، وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم، وترك الاعتراض لمن

يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها، على اختلاف رأيه ومذهبه، ومفارقته في دينه وعقيدته، وإقامة ما يلزمه في حدود ديانته، وحفظ المواضع الباقية في قبضته، داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولدّ، وما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية إليها، والمنع من نقض المصلبات بها، والاعتراض لأحباسها المطلقة لها، ومن هدم جداراتها وسائر أبنيتها، إحسانًا من أمير المؤمنين إليهم، ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم، وحفظًا لذمة الإسلام فيهم، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة، ومتولي هذه النواحي وكافة الحماة، وسائر المتصوفين في الأعمال، والمستخدمين على سائر منازلهم، وتفاوت درجاتهم، واستمرار خدمتهم، أو تعاقب نظرهم، في هذا الوقت وما يليه، فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه، ويعمل عليه وبحسبه، وليحذر من تعدى وحده ومخالفة حكمه، ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه، وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه، يستعين بها على نيل طلبه، وإدراك بغيته، إن شاء الله تعالى. وكتب في جمادى الأخرى سنة إحدى عشرة وأربعمائة». وفي أعلاه بخط الحاكم توقيع: الحمد لله رب العالمين.

قال ابن بطريق: وانفتح حينئذ باب رجعة الكنائس ورد أوقافها عليها، وأطلق عمارة جميع الكنائس والديارات التي يستدعي منه الإذن فيها وفي عمارتها بمصر وفي سائر بلاد مملكته، وكتب لكل منهم سجلًا لإعادة أوقافها إليها، إلا ما كان من الأوقاف والكنائس قد بيع في وقت القبض عليها في دمشق وفي جميع بلاد الساحل، وصرف ثمنه في النفقات السلطانية؛ لضيق الأموال وقلتها، أو ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين. ولما تسامح الحاكم بعمارة الكنائس وتجديدها ورد أوقافها عاد الذين أسلموا من النصارى وقت الاضطهاد إلى دينهم بأمره وتسامحه. ولما هلك الحاكم وبويع لابنه الظاهر واستولت عمته على

الملك بالفعل تقدمت بمسير نيقيفور بطريرك بيت المقدس إلى حضرة الملك ليطلبه بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة ببيت المقدس وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام ورجوع أوقافها إليها.

وكان البطاركة أشبه بسفراء سلام بين ملوك الإسلام وملوك الروم. إذا وقع حيف على المسلمين في ديار أعدائهم يندبهم ولاة الإسلام إلى مطالعة الروم بما ينال النصارى في الشام وغيرها من الاضطهاد إن هم أساءوا إلى المسلمين الواقعين في أسرهم، أو الراحلين إليهم في التجارة. ومما اشترط ملك الروم على الظاهر العبيدي في عقد الهدنة ثلاثة شروط منها أن يعمر الملك الظاهر كنيسة القيامة ببيت المقدس ويجددها من ماله، ويصير بطريركًا على بيت المقدس، وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التي في بلاد الظاهر. فقبل الظاهر ما شرطه الملك من بناء كنيسة القيامة ومن إقامة بطريرك ومن تجديد النصارى بقية الكنائس سوى ما كان منها قد عمل مسجدًا.

وقد علل مجير الدين الحنبلي عمل الحاكم في هدم البيع تعليلًا غير مقبول كثيرًا قال: إنه بسبب ما أنهي إلى الحاكم من الفعل الذي يتعاطاه النصارى يوم الفصح من النار يوقدونها في سبت النور يوهمون أنها تنزل من السماء وقال: إن المستنصر بالله أبا تميم معدًا، هادن ملك الروم على أن يطلق خمسة آلاف أسير ليمكن من عمارة القيامة التي كان خربها جده الحاكم فأطلق الأسرى. قال: والذي يظهر أن تخريبها لم يكن تخريبًا كليًا بل كان في غالبها.

وقد وقع في العصور التالية بعض حوادث من تخريب كنيسة أو بيعة كان السبب فيه داخليًا كأن يميل أهلها إلى عدو خارجي يداهم القطر، فقد استطالوا سنة (٦٥٨هـ) على المسلمين كما يقول المؤرخون، فنهبهم

المسلمون وخربوا كنيسة مريم بدمشق، وكما وقع لهبة الله النصراني متولي خزانة السلطان فإنه «كان تمكن من المسلمين وآذاهم، ورفع منار النصارى وتسلطوا بجاهه على المسلمين، وجدد لهم بناء كنيسة مريم وشيد بنيانها، ورفع بابها، وحسن عمارتها، ثم هدم ما زاده، وأعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه، وتولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم».

وكل تخريب وقع كان عن دواع كلية في الغالب يرجع في جملته إلى اعتداء النصارى في غير ديار الإسلام على المسلمين. فإن نيقيفور دومستيقس صاحب الروم لما غزا جزيرة اقريطش (كريت) في أسطول ونازلها في النصف من المحرم سنة خمسين وثلاثمائة وحاصرها ثمانية أشهر وفتحها وخرب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقًا كثيرًا قام المصريون فخربوا بعض ما عندهم من الكنائس انتقامًا من الروم على فعلتهم، وهكذا دواليك في تلك العصور المظلمة.

وفي سنة (٨٥٦) صدر مرسوم الملك بالكشف على الأديار وبهدم ما استجد بدير صهيون في القدس وانتزاع قبر داود من أيدي النصارى فهدم البناء المستجد، وفيها أخرج المسجد من دير السريان وصار زاوية وهدم البناء المستجد ببيت لحم وفي كنيسة القيامة وكشفت جميع الأديار وهدم جميع ما استجد بها. وفي سنة (٨٩٥) هدمت القبة التي أحدثها النصارى في دير صهيون؛ والسبب في ذلك على ما يبدو للنظر أن الدولة في تلك الأيام حاذرت من أن يكون من بعض الأديار والكنائس أماكن يعتصم فيها تساعد في الأيام العصيبة على أن تكون ثكنًا وقلاعًا لمن يداهم الشام من غير أهل الإسلام.

ومع هذا لم يخل زمن من ظهور حكام استعملوا العدل في تلك الأعصار مع أبناء ذمتهم، فقد ذكروا أن المفرج بن الجراح لما تغلب على

أرجاء فلسطين ألزم النصارى ببناء كنيسة القيامة ببيت المقدس، قال ابن بطريق: إنه عاون على بناء كنيسة القيامة وأعاد فيها مواضع بحسب إمكانه وقدرته.

كنائس دمشق

ولم يحدثنا التاريخ بما كان من أنواع الكنائس بعد القرن الثامن ومعظم الكنائس والأديار في الشام اليوم بعد كنائس القدس وبيت لحم ودمشق هي مما أنشئ في القرون الأخيرة. فالكنائس في دمشق جددت بعد سنة (١٨٦٠) أي: بعد أن خربت في حوادث تلك السنة. فلطائفة الروم الأرثوذكس ثلاث كنائس أكبرها المريمية وهي أعظمها، ومن أقدم كنائس هذه الديار وفيها مقام البطريرك الأنطاكي خربت في أدوار كثيرة، وآخر خرابها في وقعة تيمور يبلغ طولها نحو ٧٠ ذراعًا وعرضها نحو أربعين. والثانية كنيسة مار يوحنا الدمشقي أُنشئت بعد سنة (١٨٦٠) وفي جوارها مدرسة الروم، والثالثة كنيسة الميدان في محلة القرشي تمَّ بناؤها سنة (١٨٦٢). ولطائفة الروم الكاثوليك ثلاث كنائس أيضًا كانت الكبرى كنيسًا لليهود القرائين فاشتراها الكاثوليك وأُسست أيام الحكومة المصرية تم بناؤها سنة (١٨٤٠) على اسم السيدة وهي في حارة زيتون قرب سور البلد القديم وحرقت في حادثة سنة (١٨٦٠) أيضًا وهي متينة راسخة البنيان وفيها مقام البطريرك الأنطاكي لتلك الطائفة، والكنيسة الثانية في باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس.

والثالثة في القرشي على اسم سيدة النياح. وللسريان الكاثوليك كنيسة على اسم مار موسى الحبشي في حي المسيحيين على الطريق العامة وفيها دار البطريركية ولها مدرسة متصلة بها حرقت في سنة (١٨٦٠) أيضًا ثم جددت. وللأرمن القدماء كنيسة قرب السور وهي قديمة احترقت في

حوادث سنة (١٨٦٠) واسمها مار سركيس ولها مدرسة جدد بناؤها بعد الحوادث. وللسريان اليعاقبة كنيسة بالقرب من الباب الشرقي في محلة حنانيا جددت سنة (١٨٦٠) باسم جاورجيوس. وللأرمن الكاثوليك كنيسة أمام دير اللعازاريين أنشئت بعد سنة (١٨٦٠) على اسم القديس غريغوريوس. وللبروتستانت كنيستان بنت إحداهما مسز موط الإنكليزية سنة (١٨٦٨) والثانية (١٨٦٤) بناها القس يوحنا كرفورد الأميركاني.

وقد أنشئت عدة كنائس وأديار في دمشق أهمها دير اللعازاريين كان شرع ببنائه قبل حوادث (١٨٦٠) ثم أحرق وجدد بعد ذلك، وفيه مدرستان إحداهما للذكور والثانية للإناث. ولليسوعيين مدرسة للبنات وفيها كنيسة صغيرة. وهناك دير الفرنسيسكان بالقرب من دير اللعازارية قيل: إنه أنشئ من نحو ٣٥٠ سنة عقيب حوادث (١٨٦٠) وفيه مدرسة للصبيان. ولطائفة الموارنة دير على اسم مار أنطونيوس البادواني حرق (١٨٦٠) وفيه دار البطريركية. وفي سفح الصالحية كنيسة صغرى للسريان الكاثوليك. وأنشئت في العهد الأخير كنيسة في المدرسة الإيطالية بطريق الصالحية وأخرى وراء المستشفى العسكري لراهبات الفرنسيسكان وغيرها من الكنائس الصغرى.

كنائس حلب

وليس في الشهباء كنائس قديمة وأقدمها لا يرد عهده إلى قبل منتصف القرن الماضي؛ فمنها كنيسة الأربعين للأرمن الغريغوريين في الصليبة وهي من الكنائس القديمة جددت (١٨٦٩) وكنيسة السيدة للأرمن الغريغوريين (١٨٥٠) وكنيسة مار أنطونيوس البادوي للآباء الفرنسيسيين أنشئت (١٦٦٠) ثم جددت، وكنيسة انتقال السيدة للسريان الكاثوليك في حارة الصليبة جددت (١٨٥٠) بعد حريق وقع لها. وكنيسة أم المعونات

للأرمن الكاثوليك تم بناؤها (١٨٤٠)، ومنها كنيسة بشارة الإنجيل للبرتستانت في محلة جقور القسطل جعلت كنيسة (١٨٦٧)، وكنيسة مار فرنسيس للآباء الفرنسيسيين في حي جلوم تم بناؤها (١٨٧٨)، وكنيسة السيدة للروم الأرثوذكس في الصليبة جدد بناؤها (١٨٥١). وسيدة الانتقال للروم الكاثوليك جددت بعد حريقها (١٨٥١)، ومار جرجس للروم الكاثوليك في ثرعسوس تم بناؤها (١٨٥١)، وكنيسة قلب يسوع للآباء اليسوعيين في حي تراب الغربا تمت سنة (١٨٨١)، وكنيسة مار بطرس للكلدان في العزيزية (١٨٨٢)، وكنيسة مار جرجس للسريان الأرثوذكس في جقور قسطل وهي من الكنائس القديمة إختص بها السريان بعد أن كانت مشتركة بينهم وبين الأرمن في سنة (١٨٩٣)، وكنيسة القديس بونونتورا للآباء الفرنسيسيين تم بناؤها في حي الرام سنة (١٩٠٧)، وكنيسة للموارنة باسم مار الياس الحي في الصليبة تمت سنة (١٨٩١)، وكنيسة الأنفس المطهرية في الحميدية تم بناؤها سنة (١٩١٠).

الكنائس والبيع في القدس

وفي القدس أديار وكنائس كثيرة بحيث يصح أن تدعي بلد الكنائس، ولطائفة كاثوليك الرومانيين كنيسة اسمها كنيسة البطريركية ودير المخلص للفرنسيكان وله كنيسة وميتم وصيدلية ومطبعة، وكنيسة القديسة حنة وكنيسة الاكسي هومو (أي صورة المسيح المكللة بالشوك)، وكنيسة الدورميسيون وكاتدرائية سان ايتيان، وكنيسة الاغوني وأديار كنيسة القيامة ودي لا فلاجلاسيون والدومنيكيين وإخوان البعثة الإفريقية واللعازاريين والآباء الباسيونيست والبندكتيين. ودير البندكتيين وأديار الكرمليين وسيدات صهيون وأخوات القديس يوسف وأخوات الوردية والكلاريس وأخوات ربباراتريس والبندكتيات.. ولهم كنائس في المدارس؛ منها في المدرسة الإكليريكية البطريركية وميتم الأطفال في دير المخلص

والمدرسة الصناعية في الدير نفسه ومدرسة الذكور للفرنسيسكان والمدرسة الصناعية للذكور لرهبان سيدة صهيون ومدرسة الذكور لإخوان المدارس المسيحية ومدرسة وميتم بنات أخوات القديس يوسف وميتم البنات لأخوات الفرنسيسكانيات ومدرسة للبنات لراهبات الوردية ومدرسة وميتم لبنات سيدات راتسبون، ومدرسة البنين والبنات لجمعية الأرض المقدسة الألمانية.

ومن المستشفيات مستشفى سان لويس، تعاون فيه راهبات القديس يوسف وملجأ اللقطاء والعجزة والمرض لأخوات الإحسان، وملاجئ الحجاج مثل كازانوفا للفرنسيسكان. والملجأ الكبير الفرنسي لسيدة فرنسا وملجأ الاغسطينيين والملجأ الكاثوليكي الألماني والملجأ النمساوي والروم المجتمعين أو الروم الكاثوليك كنيسة في البطريركية وبيعة في سانت فيرونيك ومدرسة إكليركية كبرى لرهبان القديسة حنة لإخوان البعثة الإفريقية (الآباء البيض) وميتم للبندكتيات وواحد للسوريين المتحدين وله مدرسة إكليركية يديرها الآباء البنديكتيون وقليل من الأرمن المتحدين مع كنيسة سيدة السباسم وبيعة وملجأ ومدرسة متصلة بالكنيسة اللاتينية.

وللطوائف البروتستانتية الألمانية كنيسة المخلص الألمانية وملاجئ فرسان القديس يوحنا، ومستشفى الدياكونيس قيصر ورت ودار للبرص للإخوان المورافيين وميتم للفتيات وميتم سوري للأولاد أسسه شنيلر وله ملجأ للعميان ومدرسة لأولاد العرب في القدس. وللطائفة البروتستانتية الإنكليزية مدرسة وكنيسة أسقفية وجمعية التبشير الكنائسي لدعوة أبناء العرب من المسلمين واليهود للمذهب ولها كنيسة القديس بولس وميتم للذكور أسسه أسقف كوبا ومدرسة للذكور والنبات ومدرسة عالية وكنيسة يسوع لجمعية يهود لندرا، وهذه الإرسالية تقوم بنفقة مستشفى كبير وصيدليتين ومدارس للذكور والإناث ومدرسة صناعية ومطبعة. ولرهبتة

فرسان القديس يوحنا الإنكليزية مستوصف للرمد وبعض الأديار والمدارس تنفق عليها جمعية تبرعات فلسطين وجمعية مبرات إرسالية الشرق الإنكليزية. ولطائفة الروم الأرثوذكس عدة أديار وكنائس منها دير هيلانة وقسطنطين ودير إبراهيم ودير جيتسماني والقديس باسيليوس والقديس تيودوروس والقديس جورج والقديس ميشل والقديسة كاترينا واوتيم وسيدة النجا واسبيريدون وكارالومبوس وديمتريوس ونيقولاوس وروح القدس ومدرسة للبنات وأخرى للذكور ومستشفى وغير ذلك. وللبعثة الروسية مدرسة كبرى في حي يافا والبنايات على جبل الزيتون. وكان للجمعية الروسية الفلسطينية ملجأ كبير للحجاج بالقرب من المعهد الروسي، وملجأ للراهبات بالقرب من البيمارستان.

وللأرمن دير بالقرب من باب صهيون، ولهم مدرسة إكليريكية ومدرستان للذكور وللإناث وكنيسة القديس يعقوب ودير للنساء اسنه دير الزيتوني ودير وبيعة جبل صهيون ولهم ملجأ. وللأقباط دير يقيم فيه أسقفهم ودير أخر يقال له: دير القديس جورج. وللسريان اليعقوبيين كنيسة صغرى يقيم فيها أسقف لهم. وللحبش دير وكنيسة في الشمال الغربي من المدينة وللإسرائيليين زهاء ٧٠ كنيسًا. وكثير من معاهد الخير والإحسان وملاجئ للزوار ومعاهد للفقراء أسس معظمها مونتفيور وروتشيلد وجمعية الاتحاد الإسرائيلي وغيرهم، ولهم أربعة مستشفيات ودار للمعتوهين ومدرسة للعميان وملجأ للشيوخ ومدرسة ابتدائية وصناعية تقيم عليها جمعية الاتحاد الإسرائيلي ومدرسة إنكليزية للبنات ومدرسة ألمانية للبنين وملاجئ منها الألماني والإسباني وفي القدس مدرسة البنات لاسوج. ولما زار الإمبراطور غليوم الثاني ملك ألمانيا مدينة القدس أمر بإنشاء أربع كنائس، وكلها واقعة في أهم بقعة في

المدينة ثلاث منها مشرفة عليها من الخارج والرابعة داخل المدينة؛ أي السور.

وقبل الحرب العامة كان في القدس ٨ أديار للذكور و٩ أديار للإناث من اللاتين وكنيستان للروم الكاثوليك وواحدة للأرمن الكاثوليك و١٤ ديرًا للروم الذكور و٤ أديرة للإناث من الروم و٤ أديار للروس و٥ للأرمن و٣ للأقباط و٣ للحبش و٢ للسريان و٢ للبروتستانت الأسقفيين و١ للإنجليين وا للهيكليين من الطواف البروتستانتية و٤٠ كنيسًا للإسرائيليين وربما زادت بعض الطوائف أماكن أخرى للعبادة.

وكنائس القدس وأديارها وبيعها على غاية من الفخامة؛ لأنها من إنشاء دول كبرى ومكانة القدس في هذا الباب لا تنازعها فيه غير رومية العظمى، وأهم تلك الكنائس في القدس كنيسة القيامة وهي ليست بالكبرى كثيرًا بالنسبة لكنائس الغرب المهمة؛ بل هي متوسطة الحجم استأثر أهل كل مذهب من مذاهب النصرانية ببقعة صغيرة منها لا يتعدونها يسكنونها ويوقدون سرجها ويتعهدونها بما يصلحها. والسدانة للمسلمين حتى لا يقع بين أهل تلك المذاهب شيء من التحاسد الذي أدى في الأزمان السالفة إلى فتن وحوادث، ولكل قطعة من قطع كنيسة القيامة وجدار من جدرانها وعمود من عمدها حادثة تاريخية يذكرونها في تاريخهم الديني.

ولو كان عني بعمران كل بلد على مثل ما عني بإنشاء الأديار والكنائس في القدس، وما إليها من الأرض المقدسة لكانت الشام أعمر أقطار العالم بكنائسها وأديارها فقد قدَّر بعضهم ما أنفق على هذه المعاهد الدينية الكبرى بخمسة عشر مليون جنيه قبل أن يحاول اليهود أن يجعلوا لهم من فلسطين وطنًا قوميًّا، وقبل أن ينشئوا فيها كنائسهم ومعابدهم

ويشترك يهود العالم في إتمام مشاريعهم في فلسطين. ولا يدخل في هذا التقدير ما في معابد القدس من العاديات والآثار والتحف والطرف، فإن ذلك لا يقوم بثمن. كل هذا بسائق المنافسة السياسية والدينية بين الطواف المسيحية بعضها مع بعض وبين المسيحيين من جهة والموسويين من أخرى.

كنائس فلسطين

ولو جئنا نستقصي كنائس فلسطين لطال بنا المجال فمن كنائسها كنيسة روسية في يافا مطلة على سهل سارون وكنائس صغيرة ثابتة للفرنسيين والروم الأرثوذكس والكاثوليك والموارنة، وكنيس لليهود. ولهم مدرسة مهمة في تل أبيب وأهم الأديار فيها دير اللاتين وفيها كنيسة للبروتستانت الألمان من طائفة الهيكليين واسمها أحباب القدس، وقد كثرت الكنائس في المدن والقرى، والغالب أن كنائس القرى سبقت بإنشائها كنائس المدن؛ لأن النصرانية انتشرت أولًا في القرى وعصى أهل المدن على التدين بها لغلبة التعصب عليهم. ومن رأي بعض الواقفين أن النصرانية انتشرت أولًا في المدن كالقدس وأنطاكية والإسكندرية وأفسس حتى وصلت إلى داخل بلاط القياصرة.

وفي نابلس دير للاتين وكنيسة للروم وكنيس وكتاب للسامرة.ومدرسة للإنكليز ومدرسة للراهبات ولها بيع صغير وفي أريحا كنيسة للروم وأخرى للاتين. وكنيسة بيت لحم من أقدم الكاتدرائيات الباقية لم تخرب في جملة ما خربه الحاكم، وقد رممت في أوقات مختلفة وزينت ولا سيما في عهد الصليبيين، وفي بيت لحم عدة أديار وكنائس منها دير للفرنسيسكان مع دار ضيافة ومدرسة للذكور وصيدلية وكنيسة جميلة ولأخوات القديس يوسف دير وميتم ومدرسة للبنات ودير للكرمليات

عُمر على مثال قصر سانت آنج في رومية وله كنيسة ومدرسة إكليركية لجمعية آباء القلب المقدس وجمعية الأب بيلوني، وفيه مدرستان إحداهما صناعية وكنيسة. ولراهبات المحبة مستشفى ولإخوان المدارس المسيحية مدرسة عظمى وللروم دير الولادة وكنيستان إحداهما باسم القديسة هيلانة والثانية باسم القديس جورج ومدرسة للذكور وأخرى للإناث. وللأرمن دير عظيم وهو دير الفرنسيسكان ودير الروم أشبه بقلاع. وللبروتستانت الألمان مدرستان وميتم، وللإنكليز مدرسة للفتيات يضاف إليها دار للمعلمات وكلها تحوي كنائس وبيعًا. وفي الناصرة أربع عشرة بيعة وكنيسة ومعظمها من ضخامة البناء ما يذكر بقصور الملوك، ودير الفرنسيسكان يزار لبعض الآثار التاريخية فيه وهو أثر من آثار القرون الوسطى. وفي صفد كنيسة ومدرسة للروم الكاثوليك وخمس كنائس للإسرائيليين وخمس مدارس ابتدائية دينية ومدرسة عالية للاتحاد الإسرائيلي وكنيسة ومستشفى للبروتستانت. وفي طبريا كنيسة للروم وأخرى للكاثوليك وخمس كنائس لليهود. وللكاثوليك كنائس في حيفا والبصة وشفا عمرو وترشيحة والمقار. وفي الطور دير وكنيسة لكل من الفرنسيين والروم الأرثوذكس، وكنيسة الفرنسيين من أبدع كنائس العالم.

وفي الرملة دير للآباء الفرنسيسكانيين أسس سنة (١٤٠٠) على يد الأمير فيليب الإسباني ثم خرب سنة (١٧٠٠) ثم أعيد بناؤه. وخرب صلاح الدين كنيسة لد التي أنشئت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، كما خرب كثيرًا من الكنائس في عهده وخرب بعضها في الحروب وخرب الآخر قصدًا لأسباب سياسية وحربية حافزة. وفي جنين دير ومدرسة للذكور وللروم كنيسة وللبروتستانت وللكاثوليك ولكل كنيسة مدرسة تابعة لها.

وبالجملة فكل بلد في فلسطين لا يخلو من دير أو كنيسة أو كنيس مهما بلغ من قلة ساكنيه من المسيحيين والإسرائيليين.

والفضل في إنشاء هذه الكنائس لجماعة الرهبان والمبشرين فهم الذين استوكفوا أكف المحسنين في الغرب وصرفوا عقولهم وأوقاتهم في إقامة تلك المعاهد المهمة، وقد جاء منهم نوابغ في كل قرن خلدوا اسمهم بقدر ما بذلوا من العناية بنشر دينهم وإقامة شعائره ومعابده، فاستفاد العمران من عملهم فوائد لا ينكرها منصف. كتب إيليا بطريرك بيت المقدس إلى أنسطاس ملك الروم: قد بعثتُ إليك بجماعة عبيد الله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صيَّر بريتنا مدائن وأعمرها وهو نجم فلسطين.

كنائس الأردن

وفي عبر الأردن كنائس أهمها كنيسة مادبا أو ميدبا، وقد تقدم الكلام عليها في المصانع، ونزيد الآن أن ميدبا (عن مجلة المسرة) فاقت أخواتها بكنائسها الفخمة العشر وأن سرجيوس مشيد الكنائس شيد كنيسة على اسم الرسل القديسين. ومن الكنائس التي بقي ذكرها إلى اليوم كنيسة البتول التي يرجع عهدها إلى أيام القيصر يوستنيانوس. ولما فاضت جيوش الأعاجم على هذه الديار حرقت الكنائس والأديرة وذبحت الألوف من الرهبان والنصارى، ثم وطئتها أقدام الفاتحين من المسلمين فدثرت تلك الأسقفية وعادت أخربة ينعق فيها البوم عصورًا طويلة.

وكان في أكثر أمهات قرى حوران كنائس مهمة في الإسلام خربت بطول الزمن حتى قيل إنه كان في إقليم حوران فقط أربع وثلاثون أسقفية وناهيك بما يقتضي لها من الكنائس. واشتهرت اليوم كنائس تبنة وبصير

وخبب. وفي جبل عجلون عدة كنائس منها ثلاث في الحصن أكبرها كنيسة اللاتين. وفي عجلون عدة كنائس صغرى جعل بجانبها مدارس.

وفي الكرك ثلاث كنائس للروم والكاثوليك والبروتستانت. وقد بلغ الغرام برجال المذاهب المسيحية أن أهل كل مذهب إذا وجدوا خمس عيال في قرية من رعاياهم أنشأوا لهم كنيسة فالكنائس الصغيرة كثيرة جدًّا في كل بلد وكل قرية أنشأ فيها اللاتين كنيسة أنشأ فيها البروتستانت أيضًا والعكس بالعكس.

كنائس لبنان

أمَّا كنائس لبنان فكثيرة جدًّا لا تكاد تخلو قرية من كنيسة أو كنيستين وربما أكثر، وليست كلها على جانب عظيم من العظمة ولا يرد عهدها إلى زمن قديم، فإن معظم ما كان منها في كسروان وما إليه إلى جنوبي الجبل ليس له من العمر أكثر من مائتي سنة؛ ذلك لأن الموارنة لم يمتدوا إلى كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد، وكان عشهم في شمالي لبنان قبل ذلك. ولقد ترى في بعض المدن اللبنانية كزحلة وهي أكثر القرى سكانًا في الجبل كثيرًا من الكنائس التي لم تقم على ما يظهر إلا بسائق المنافسة ففيها ١٢ كنيسة للكاثوليك وكنيستان للأرثوذكس وكنيستان للموارنة وكنيسة ودير لليسوعيين وكنيسة للسريان الكاثوليك وكنيسة للأميركان، وفي زحلة أيضًا دير القديس الياس الطوق للرهبنة الباسيلية، وفيها كنيسة في المدرسة الشرقية وغير ذلك من الكنائس الملحقة بالمدارس ولا تقل عن ست وعشرين كنيسة. وفي مدينة بيروت وطرابلس واللاذقية وصور وصيدا كنائس كثيرة لكل طائفة ولكل جمعية تبشيرية وأهمها ما كان في بيروت فللروم الأرثوذكس وللروم الكاثوليك

وللبروتستانت الأميركيان ولغيرهم من الطوائف كنائس وبيع مهمة، وأهمها ما كان لليسوعيين أو المرسلين الأميركان.

وفي الهدنة التي عقدت بين المنصور قلاوون وولده الملك الصالح وبين حكام الفرنج بعكا سنة (٦٨٢) أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصلب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برًا ولا يحط حجر منها على حجر لأجل بنايته ولا يتعرض إلى الأقسام والرهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دير الصليب.

ومن كنائس لبنان وما إليه كنيسة معاد وكنيسة رشكيدا وكنيسة حدنون وكنائس أهدن وعبدله وبحديدات وصربا وكفر شليمان وقنوبين وبكفيا وادّه وبشري وبكركي والديمان وزحلة ودير القمر والشرفة وبرمانا وغزير وبيت خشبو وبزمار وبعبدات والقرية وحريصا وأميون وجزين وجبيل وأفقة والكورة والزاوية وبحنس ودير مار الياس والشوير وبسكنتا وكفتين ودير مار يعقوب المقطع ودير سيدة الرأس ودير حماطورة ودير مار جرجس ودير مار الياس النهر ودير ناطور ودير سيدة النورية عند وجه الحجر ودير كفتون ودير جبرائيل ودير ميخائيل المعظمة في برج صافيتا ودير مار جرجس الحميرا ودير الأحمر، ودير مار شربين ودير مار توما قرب صيدنايا.

وكان الصليبيون أنشأوا عدة كنائس في أرواد وطرطوس وصيدا وبيروت وغيرها من الساحل فهدمت، ثم بنيت مساجد ولأن بعضها كان بمثابة حصون في أيدي الراهبنات المتجندة مثل الهيكليين والاسبتاريين

والتوتونيين. وفي أمهات المدن الصغيرة كنائس مهمة مثل بعلبك وعكار والحصن وحمص وحماة ويبرود والقبيات والإسكندرونة وأنطاكية. وفي هذه فقط تسع كنائس وفيها أنشئت أول كنيسة في الشام وكانت في جميع أدوارها موضع إعجاب المؤرخين والسائحين ومنها ما هو في القرى مثل صدد ومعلولا وصيدنايا، وهذه أليق بأن تذكر في باب الأديار لأنها بعيدة عن المدن والدير في الحقيقة كنيسة وزيادة. ولليهود في حلب ودمشق عدة كنائس ولكنها ليست من المكانة على شيء ولهم في تادف وجوبر وغيرهما كنائس قديمة ينتابونها ومن عادة الإسرائيليين أن يكون في دار كل غني كنيس وهو عبارة عن غرفة كبيرة تجعل للعبادة وأشهرها في دمشق كنيس سوق الجمعة، ولهم في حلب كنائس مهمة وكذلك في بيروت.

عمل الرهبان والراهبات العظيم

يتصور القارئ مبلغ عناية الرهبان والراهبات بدينهم من إلقاء نظرة على الفصل التالي: للراهبات الألمانيات مدرسة ودار للأيتام في القدس ومستشفى في حيفا ومستشفى ومدرسة ليلية ونهارية للإناث في بيروت ومعهد في دمشق وآخر في حلب، وقد جئن القدس سنة (١٨٨٧). وجاء راهبات السجود القدس سنة (١٨٨٨) وأسسن فيها ديرًا كبيرًا ثم جئن بيروت وأنشأن دارًا للعبادة. وللعازاريين محال مهمة وهم يقسمون قسمين؛ قسم الرهبان العازريين الألمان جاءوا سورية عام (١٨٩٠) وأنشأوا في القدس مدرسة، والقسم الثاني رهبان فرنسيون جاءوا سورية منذ نحو قرنين وأخذوا الأديار التي كانت لليسوعيين ولهم مدرسة في بيروت وأخرى في عينطورة وأهدن في لبنان ورابعة في دمشق وخامسة في ريفون.

وجاء الآباء الساليزيون القدس سنة (١٨٩١) ولهم دار للأيتام في بيت لحم ودار للأيتام زراعية في بيت جمال وثالثة في الناصرة ومدرسة ابتدائية في بيت لحم. وجاء الراهبات الساليزيات القدس سنة (١٨٩١) وهن يشتغلن مع الرهبان الساليزيين. وأتى راهبات صهيون القدس عام (١٨٥٦) وأنشأن معهدًا في كنيستهن المسماة اكس هومو. وقدم الآباء البيض القدس عام (١٨٧٨) وأنشأوا كنيستين فيها. ونزل آباء القلب المقدس القدس عام (١٨٧٩) وأنشأوا مدرسة في بيت لحم. ولراهبات الوردية عمل ديني مثل بنات جنسهن. وجاء القدس آباء سيدة صهيون عام (١٨٨٤). والدومنيكان أو رهبان مار عبد الأحد وردوا على القدس عام (١٨٨٢) وأسس الرهبان الصعوديون مأواهم في القدس عام (١٨٨٧)، وأسس الآباء الترابيون ديرًا في الأطرون وهم معروفون بفن الألبان والزراعة. وجاء الراهبات البندكيتات القدس عام (١٨٩٦) وراهبات هورتوس كونكلوز وهن أميركانيات جئن القدس عام (١٩٠١).

ولراهبات الناصرة مدرسة في حيفا وأخرى في شفا عمرو، وثالثة في عكا ودير الناصرة في بيروت وقد جئن سورية سنة (١٨٥٥). وقدم الراهبات

الكرمليات الشام سنة (١٨٧٣)، وأنشأن ديرهن المعروف في جبل الزيتون في القدس ولهن دير في بيت لحم وآخر في سفح جبل الكرمل قرب حيفا. وجاء رهبان الفرير الشام سنة (١٨٧٨) ولهم مدرسة في القدس وأخرى في حيفا وثالثة في الناصرة ورابعة في بيت لحم وخامسة في بيروت وسادسة في طرابلس وسابعة في إسكندرونة وثامنة في دمشق وتاسعة في يافا. وجاء رهبان مار يوحنا الإلهي القدس عام (١٨٧٩) فأسسوا مستشفى في طنطور على طريق بيت لحم ولهم مستشفى ومستوصف في الناصرة.

وجاء راهبات سانت كلير الشام عام (١٨٨٤) وأنشأن ديرًا على طريق بيت لحم ولهنَّ دير في الناصرة. ووردت الراهبات الفرنسيسيات البيض القدس عام (١٨٨٥) وأنشأن ميتمًا ولهن ميتم في بيت لحم وأنشأن مدرسة في دمشق. وجاء راهبات المحبة القدس عام (١٨٨٦) ولهن مستشفى ودار للأيتام في بيت لحم ومستشفى ومدرسة في حيفا ومستشفى في الناصرة، ولهن في بيروت مستشفى عظيم ودار للأيتام ودار للصناعة للذكور والإناث وثلاث مدارس صغرى في بيروت ومكتب للصنائع في طرابلس ودور نقاهة في أهدن وبحنس من لبنان ومدرسة في برج البراجنة، وفي كل معهد منها دار للعبادة يختلف إليها أهل المذهب الذي يبشرون به.

ولقد قالوا: إن عدد الجمعيات الأجنبية التي تسعى لتنوير أفكار النصارى في سورية تبلغ ثمانين جمعية، وأهمها جمعية اليسوعيين وردوا الشام قبل قرنين أو ثلاثة فأسسوا الأديار التي ينزلها اللعازريون ثم غادروا الديار فلم يعودوا إليها إلا عام (١٨٣١) فأنشأوا مدرستهم في غزير من لبنان. وفي عام (١٨٧٦) افتتحوا كليتهم العظمى في بيروت ولهم الآن عدة أديار ومدارس في بكفيا والمعلقة وزحلة وغزير ودمشق وحلب وتعنايل وجزين، وقد أنشأوا بعد الحرب العالمية مدارس صغرى كثيرة في ربوع جمهورية لبنان ويوشكون أن يتوسعوا في الداخلية كثيرًا بمدارسهم وكنائسهم. أما الفرنسيسكان فلم يزالوا في الشام منذ الحروب الصليبية وزادوا عام (١٨٤٨) عدد أديارهم وأنشأوا ملاجئ للزوار في القدس، ولهم فيها ستة ملاجئ ولهم أديار وملاجئ في بيت لحم وعين كارم وطبريا وجبل الطور والناصرة وقانا وعكا وصور وصيدا وبيروت وحريصا وطرابلس واللاذقية ودمشق وحلب وإسكندرونة ولهم مدرسة في حلب.

وكان الكرمليون تركوا الشام مع القافلة الأخيرة من الصليبيين، ثم عادوا إلى جبل الكرمل عام (١٦٣٦) وبنو ديرًا ومحلًا للضيافة في الجبل، ولهم أديار في حيفا وطرابلس والقبيات من إقليم عكار ومدرسة في بشري. وديرهم في الكرمل من أجمل أديار الشام ترى منه أجمل المناظر. وجاء راهبات القديس يوسف أو الراهبات اليوسفيات من مرسيليا إلى القدس عام (١٨٤٨)، ولهن في فلسطين ١٣ معهدًا و٣ مستشفيات أحدها في القدس والآخر في يافا والثالث في الناصرة. ولهن في هذه المدن ثلاث دور للأيتام ومدرستان نهاريتان وخمس مدارس دينية ومدرسة في بيروت ودير في صيدنايا ومدرسة فيها دير ومدرسة في دير القمر وديران ومدرستان ليليتان ومستشفى في حلب ودير ومدرسة في إسكندرونة.

الأديار القديمة في الشام

«دير إسحاق» كان بين حمص وسلمية في موضع حسن نزه على نهرٍ جارٍ وحوله كروم ومزارع إلى جانب ضيعة صغيرة يقال لها: جَدَر، وهي التي ذكرها الأخطل في قوله:

كأنني شارب يوم استبدَّ بهم ... من قرقف عتقتها حمص أو جَدَر

وقال فيه أبو عبد الرحمن الهاشمي السلماني من أهل سَلَمية:

وإذا مررت بدير إسحاق فقل ... جادتك غيث سحائب وبروق

دير يُشبِّه ماؤه بهوائه ... وهواؤه بلطافة المعشوق

وليس لهذا الدير من أثر اليوم.

«دير الباعفي» كان قبلي بصري من أرض حوران وهو دير بحيرا الراهب كما زعموا ولا يعرف الآن، وبحيرا شخص خيالي.

«دير باعنتل» من جوسية على أقل من ميل وجوسية على مرحلة من حمص ولا يعرف اليوم هذا الدير.

«دير البتراء» كان في وادي موسى دير للراهبات، وذكر البولنديون ديرًا للرهبان في البتراء كان يرأسه القديس موسى أسقف البدو الرحالة يقال: إن بانيه أثينوجينوس أوائل القرن السابع للميلاد. وذكر الرحالة تيتمار أنه طاف تلك الفيافي سنة (١٢١٧) وعثر بين أخربة البتراء على كنيسة ودير لم يزل يسكنه بعض الرهبان. وهناك الكنيسة الكاتدرائية المثلثة السواعد، وقد كانت أما لسائر الكنائس الملكية الكاثوليكية في هذه البلاد الشرقية (عن مجلة المسرة).

«دير البخت» كان على فرسخين من دمشق ويسمى دير ميخائيل، وكان عبد الملك بن مروان قد ارتبط عنده بختًا وهي جمال الترك فغلب عليها، وكان لعلي بن عبد الله بن عباس قربه جنينة يتنزه فيها. وقرية دير البخت معروفة إلى اليوم في الجيدور؛ ووجه التسمية في هذا الدير بعيد لأنه عرف بهذا الاسم قبل الإسلام على ما ظهر من رواية ابن عساكر في بعض وقائع عمر بن الخطاب في الجاهلية ومروره بدير البخت واجتماعه براهب أكرمه وتفرس فيه الخير فيما قال.

«دير بصري» قيل: هو الذي كان فيه بحيرا الراهب في حوران. مجهول محله.

«دير بلاض» من أعمال حلب مشرف على العمق، فيه رهبان لهم مزارع وهو دير قديم مشهور لم يبلغنا أنه موجود.

«دير البلمند» من أديار الروم الأرثوذكس المشهورة على نشزعال قرب مدينة طرابلس في أقصى حدود جبل لبنان يقال: إنه من أديار

الصليبيين وأن اسمه جاء من تركيب بل مونت؛ أي الجبل الجميل وهو اليوم عامر.

«دير بلودان» مر به ابن فضل الله العمري ونزل إليه فقال فيه: إن بناءه قديم بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم والفواكه والماء الجاري، بقربه قرية بلودان وهي محاذية لكفر عامر تطل من مشترفها على جبة الزبداني، وبه رهبان نظاف ونظم فيه أبياتًا ومنها:

حبذا الدير من بلودان دارا ... أي دير به وأي نصارى

فيهم كل أحور الطرف أحوى ... فائق الحسن في حسان العذارى

وقال محاسن الشوا الحلبي:

حييا ساكني بلودان عني ... ورجالًا بدير قانون زهرا

ولا يعرف متى زال هذا الدير، ودير قانون من قرى الوادي لا دير فيه اليوم.

«دير بولس» كان بنواحي الرماة، نزله الفضل بن إسماعيل وقال فيه شعرًا لم يسمه في أوله:

عليك سلام الله يا دير من فتًى ... بمهجته شوق إليك طويل

ولا زال من جو السماكين وابل ... عليك لكي يُروي ثراك هطول

قال البكري: ودير بولس آخر و«دير بطرس» أو نطرس.

وهما معروفان بظاهر دمشق في نواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة وإياهما عنى جرير بقوله:

لما تذكرت بالديرين أرّقني ... صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

فقلت للركب إذ جد الرحيل بنا ... يا بعد يبرين من باب الفراديس

ولا نعرف شيئًا عن هذا الدير.

«دير البنات» وهو دير أبيض البناء مشرف على أرض طرابلس كان للرواهب قال فيه الطيبي:

ديـر البنـات الزاهـر أنـت المنـى ... وأنـت مـن دون الأمـاني المـرام
لـم أنـس يومًـا فيـك أذهبتـه ... بـاللهو بـل ذهبتـه بالمـدام
ونحـن فـي غـرة أيامنـا ... والعيش مثل الطيف حلو اللمام
والـدوح مـا جفـت لـه زهـرة ... والـروض طفـل مـا جفـاه الغمـام
وبيننـا خـود كـشمس الـضحى ... وأغيـد قـد فـاق بـدر التمـام
لـولا نبـات الـشعر فـي خـده ... لـم تـدر أي الأغيـدين الغـلام

ولا نعرف اليوم أي أديار البنات هذا.

«دير يَوَنّا» أي يوحنا، وروي بالباء بدل الياء كان بجانب الغوطة بدمشق ليس بكبير ولا رهبانه بكثير؛ ولكنه في رياض مشرقة وأنهار متدفقة ويقال بأنه من أقدم دِيَرة النصارى. اجتاز به الوليد بن يزيد فأقام فيه أيامًا وقال فيه:

حبـذا يومنـا بـدير يَوَنّـا ... حيـث نـسقى براحـه ونُغَنّـى
واسـتهنا بالنـاس فيمـا يقولـو ... ن إذا خُبـروا بمـا قـد فعلنـا

قال ابن فضل الله: وهذا الدير اليوم لا وجود له.

«دير حمطورا» هو في شرقي طرابلس في جانب الوادي الذي أسفل من طرزيه والحدث، وهو بناء في سفح الجبل من ذلك الجانب قبالة

الطريق السالك إلى طرابلس وهو حصين جدًّا لا يسلك إليه إلا من طريق واحد وظهر الجبل الذي له ممتنع، قاله ابن فضل الله.

«دير الحنابلة» في تاريخ الصالحية لم يكن في الجبل أي قاسيون إلا بناية يسيرة من الناحية الغربية دير أبي العباس الكهفي ودار بيت الضيا وغيرها، ومن الناحية الشرقية دير يقال له دير الحنابلة، وكان أولًا لناس من الرهبان فاتفق أنهم أحدثوا شيئًا فأخرجوا منه ثم بنى الشيخ أبو عمر المدرسة.

«دير حنيناء» دير بالشام وهناك مات معاوية بن هشام بن عبد الملك فقال الكميت يرثيه:

فأي فتى دنيا ودين تلمست ... بدير حنيناء المنايا فدلت

تعطلت الدنيا به بعد موته ... وكانت له حينًا به قد تحلت

وقيل: إن الذي رثي بهذا الشعر البطال أحد قواد الأموية وفرسانهم مات بدير حنيناء قافلًا مع هشام من غزوة فأمر معاوية الشعراء برثائه. والرواية في شعر أبي تمام حبيناء بالباء المعجمة ولا يعلم عنه شيءٌ في عصرنا.

«دير الخمان» كان هذا الدير بأرض أذرعات بُني بالحجارة السود على نشز من الأرض يشرف على بركة الفوار، وهو من البناء الرومي القديم. ولا يعرف اليوم عنه شيء.

«دير خالد» وهو دير صليبا بدمشق كان مقابل باب الفراديس نسب إلى خالد بن الوليد لنزوله فيه عند حصاره دمشق قال ابن الكلبي: وهو على ميل من الباب الشرقي ولا يعرف عنه شيء آخر، وفي هذا الدير يقول محمد ابن علي المعروف بأبي البقاء:

جنـــة لقبـــت بـــدير صـــليبا مبـــدعًا حـــسنه كمـــالًا وطيبـــا
جئتـــه للمقـــام يومًـــا فظلنـــا فيـــه شـــهرًا وكـــان أمـــرًا عجيبـــا
شـــجر محـــدق بـــه وميـــاه جاريـــات والـــروض يبـــدو ضـــروبا
مـــن بـــديع الألـــوان يـــضحي بـــه الثـــا كـــل ممـــا يـــرى لديـــه طروبـــا
كـــم رأينـــا بـــدرًا بـــه فـــوق غـــصن مـــائس قـــد عـــلا بـــشكل كثيبـــا
وشـــربنا بـــه الحيـــاة مـــدامًا تطلـــع الـــشمس فـــي الكئـــوس غروبـــا
فكـــأن الظـــلام فيهـــا نهـــار لـــسناها تـــسر منـــا القلوبـــا
لـــست أنـــسى مـــا مـــر فيـــه ولا أجـــ ـــعل مـــدحي إلا لـــدير صـــليبا

«دير خناصرة» ورد ذكره في شعر بني مازن في قول حاصب بن ذبيان المازني مازن بن تميم من عمرو بن تميم لعبد الملك بن مروان في جدب أصاب العرب قال:

ومـــا أنـــا يـــوم ديـــر خناصـــرات بمرتـــد الهمـــوم ولا مُلـــيم
ولكنـــي ألمـــت بحـــال قـــومي كمـــا ألـــم الجـــريح مـــن الكلـــوم

وخناصرة بلدة في قبلي حلب وليس للدير ذكر الآن.

«دير الدواكيس» شرقي القدس حسن البناء له سمعة وذكر، وكان له وقف يعود منه على الرهبان السكان جليل فائدة ونفع ولابن فضل الله فيه، وقد مر به غير مرة أبيات منها:

ديـر الـدواكيس أم ريـش الطـواويس أم الـشموس سَـنَا تلـك الـشماميس
مـأوى المياسـير لكـن بعـد أوبـتهم منـه يعـدون فـي حـزب المفـاليس
فـانزل بـه وأقـم فيمـا تريـد وقـل امـلأ كئوسـي وفـرغ عنـدها كيـسي
واقـدح زنـاد سـرور مـن مدامتـه فهـذه النـار مسن تلـك المقـابيس

«دير رُمانين» جمع رمان بلفظ جمع السلامة، يعرف أيضًا بدير السابان وهو بين حلب وأنطاكية مطل على بقعة تعرف بسَرْمن وهو دير حسن كبير خرب قبل القرن السابع وآثاره باقية كما قال ياقوت، وفيه يقول الشاعر:

ألـــف المقـــام بـــدير رُمانينـــا للـــروض إلفًـــا والمـــدام خـــدينا
والكـــأس والإبريـــق يعمـــل دهـــره وتـــراه يجنـــي الآس والنّـــسرينا

قال ياقوت ودير السابان وهو دير رُمانين وتفسيره بالسريانية دير الشيخ.

«دير ساير» كان من نواحي دمشق، وهو من إقليم خولان سكنه عمر ابن محمد الأموي. وخولان كانت بقرب دمشق خربت بها قبر أبي مسلم الخولاني وبها آثار باقية ياقوت. وبيت سابر اليوم قرية في سفح جبل الشيخ من عمل وادي العجم.

«دير سعد» كان من ديرة الشام نزله عقيل بن عُلَّفَة المري، وكان يصهر إليه خلفاء بني أمية، وهذا كل ما عرف عنه قديمًا.

«دير سليمان» دير بجسر منبج وهو في جبل عال من جبال دلوك كطل على مرج العين، وهو غاية في النزاهة، قال أبو الفرج: أخبرني جعفر بن قدامة قال: ولي إبراهيم بن المدبر عقيب نكبته وزوالها عنه الثغور الجزرية وكان أكثر مقامه بمنبج فخرج في بعض ولايته إلى نواحي دلوك برعبان وخلف بمنبج جارية كان يتحظاها يقال لها: غادر فنزل بدلوك على جبل من جبالها بدير يعرف بدير سليمان من أحسن بلاد الله وأنزهها ودعا بطعام خفيف فأكل وشرب ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب:

أيـــا ســـاقيينا وســـط ديـــر ســـليمان أديـــرا الكئـــوس فـــانهلاني وغُلانـــي
وخـــصا بـــصافيها أبـــا جعفـــر أخـــي فـــذا ثقتـــي دون الأنـــام وخلـــصاني

ومـيلا بهـا نحـو ابـن سـلام الـذي ... أود، وعـــودا بعـــد ذاك لنعمـــان
وعُمـا بهـا النعمـان والـصحب إننـي ... تنكـر عيـشي بعـد صـحبي وإخـواني
ولا تتركـا نفـسي تمـت بـسقامها ... لـذكرى حبيـب قـد سـقاني وغنـاني
ترحلـت عنـه عـن صـدود وهجـرة ... فأقبـل نحـوي وهـو بـاك فأبكـاني
وفارقتـــه والله يجمـــع شـــملنا ... بلوعـــة محـــزون وغلـــة حَـــرّان
وليلـــة عـــين المـــرج زار خيالـــه ... فهـيج لـي شـوقًا وجـدد أحزانـي
فأشـرفت أعلـى الـدير أنظـر طامحًـا ... بـــألمح آمـــاق وأنظـــر إنـــسان
لعلـــي أرى أبيـــات منـــبج رؤيـــة ... تسكن من وجدي وتكشف أشجاني
فقـــصر طرفـــي واســـتهل بعبـــرة ... وفـديت مـن لـو كـان يـدري لفـداني
ومثلـــه شـــوقي إليـــه مقـــابلي ... وناجـاه عنـي بالـضمير وناجـاني

«دير سمعان» بنواحي أنطاكية على البحر قال ابن بطلان: وبظاهر أنطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون وله من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة وقيل: إن دخله في السنة أربعمائة ألف دينار ومنه يصعد إلى جبل اللكام -قال هذا في القرن الخامس للهجرة، وفي رواية أن دير سمعان بنواحي حلب بين جبل بني عليم والجبل الأعلى. ودير سمعان أيضًا في قرية تعرف بالبقرة من قبلي معرفة النعمان وبه قبر عمر بن عبد العزيز مشهور لا ينكر ذكره السيد الرضي في رثائه بقوله:

يـا ابـن عبـد العزيـز لـو بكـت العيـ ... ـــن فتـــى مـــن أميـــة لبكيتـــك
أنـــت نزهتنـــا عـــن الـــسب والـــشتـ ... ـــم فلـــو يمكـــن الجـــزا لجزيتـــك
ديـــر ســـمعان لا عـــدتك الغـــوادي ... خيـــر ميـــت مـــن آل مـــروان ميتـــك

وقال أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي وقد مر به فرآه خرابًا فغمه:

يا دير سمعان قل لي أين سمعان ... وأين بانوك خبرني متى بانوا
وأين سكانك اليوم الألى سلفوا ... قد أصبحوا وهم في الترب سكان
أصبحت قفرًا خرابًا مثل ما خربوا ... بالموت ثم انقضى عمر وعمران
وقفتُ أسأله جهلًا ليخبرني ... هيهات من صامت بالنطق تبيان
أجابني بلسان الحال إنهم ... كانوا ويكفيك قولي إنهم بانوا

«دير السيق» كان معروفًا قديمًا ويقع قبلي البيت المقدس على نشز عظيم عال مشرف على الغور غور أريحا يطل على تلك البسائط الخضر ومجرى الشريعة وبه رهبان ظراف أكياس لا يأتيهم إلا قاصد لهم أو مار في مزارع الغور. تحتهم وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر. ومشهد موسى عليه السلام في القبة التي بناها عليه الملك الظاهر بيبرس، وفي هذا الدير ومشترفه وأطلال قلاليه وغرفه قال ابن فضل الله العمري:

أرى حسن دير السيق يزداد كلما ... نظرت إليه والفضاء به نضر
بنوه على نجد من الغور مشرف ... كتخت مليك تحته بسط خضر
وأشرف في سود الغمام كأنما ... تشق ليلًا عن جلابيبه الفجر
وقام على طود علي كأنما ... مصابيحه تحت الدجى الأنجم الزهر
وزفت إليه الشمس من جنب خدرها ... وناغاه جنح الليل في أفقه البدر
وألقت إليه الريح فضل عنانها ... وأحنى عليها لا تبل له عذر
ولو كان كالنسرين هان ارتقاؤه ... ولكنه قد حط من دونه النسر
علا نهر ريحا والمجرة فوقه ... فمن فوقه نهر ومن تحته نهر

«دير شق معلولا» وهو بباطن جبة عسال وهو بناء رومي بالحجر الأبيض مُعَلق بسقيف وبها صدع فيها ماء ينقط نحو الذي بصيدنايا، ويأخذه النصارى للتبرك معتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر؛ وإنما

الاسم للذي بصيدنايا، قاله في مسالك الأبصار، والغالب أنه دير الروم الباقي إلى اليوم.

«دير صليبا» ويعرف بدير السائمة (السائحة)؟ وهو بدمشق مطل على الغوطة ويليه من أبوابها باب الفراديس نزل دونه خالد بن الوليد أيام محاصرة دمشق وهو في نزه كثير البساتين وبناؤه حسن عجيب وإلى جانبه دير للنساء فيه رهبان ورواهب وإياه أراد جرير بقوله:

إذا تـــذكرت بالـــديرين أرقنـــي صـوت الـدجاج وقـرع بـالنواقيس

فقلـت للركـب إذ جـد النجـاءُ بهـم يـا بعـد يبـرين مـن بـاب الفـراديس

وقد مر بنا هذا البيتان في دير بولس برواية أخرى. وقال الآخر

يـا ديـر بـاب الفـراديس المهيج لـي بلابـــلًا بقلاليـــه وأشـــجاره

لو عشت تسعين عامًا فيك مصطحبًا لما قضى منك قلبي بعض أوطاره

قال ابن فضل الله وهذا اليوم (أي في الثامن) لا عين له ولا أثر؛ وإنما صار دورًا وأبنية ومساجد ومدافن وهي بناحية محلة حمام النحاس اهـ.

«دير صيدنايا» يؤخذ مما قاله صاحب مسالك الأبصار أنهما اثنان؛ أحدهما يقصده النصارى بالزيادة وهو في دمنة القرية، والآخر على بعد منها مشرف على الجبل شماليها بشرق وهو دير مار شربين ويقصد للتنزه من بناء الروم بالحجر الجليل الأبيض وهو دير كبير وفي ظاهره عين ماء سارحة وفيها ما يطلّ على بواطن ما وراء ثنية العقاب ويمتد النظر من طاقاته الشمالية إلى ما أخذ شمالًا عن بعلبك. وأما الذي في القرية فمن بناء الروم بالحجر الأبيض أيضًا ويعرف بدير السيدة وله بستان وبه ماء جارٍ بركة علمت به وعليه أوقاف كثيرة وله مغلات واسعة وتأتيه نذور وافرة، وطوائف النصارى من الفرنج تقصد هذا الدير وتأتيه للزيارة.

وكنت أراهم يسألون السلطان في أن يمكنهم من زيارته، وإذا كتب لهم زيارة قمامة ولم يكتب معها صيدنايا يعاودون السؤال في كتابتها لهم، ولهم فيها معتقد. وقال: جاءت مرة كتب ريد فرنس (ملك فرنسا) وكتب الاذفونش (ملك إسبانيا) على أيدي رسلهم ومما سألوا فيها تمكين رسلهم من التوجه إلى صيدنايا للتبرك بها، فأجاب السلطان سؤالهم وحمل الرسل على خيل البريد إليها. وهذا الدير لم يزل عامرًا إلى اليوم يزوره الناس وفيه راهبات أرثوذكسيات، وفي عيد الصليب من كل سنة تجري فيه قربه اجتماعات وأفراح ويأتيه الناس من الأقاليم المجاورة وغيرها.

«دير الطور» الطور في الأصل الجبل المشرف، والطور هاهنا جبل مستدير واسع الأسفل مستدير الرأس لا يتعلق به شيءٌ من الجبال وليس له إلا طريق واحد وهو ما بين طبرية واللّجون مشرف على الغور ومرج اللّجون وفيه عين تنبع بماء غزير كثير، والدير في نفس القلة مبنى بالحجر وحوله كروم يعتصرونها ويعرف عندهم بدير التجلي والناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به ويشربون فيه وموضعه حسن يشرف على طبرية والبحيرة وما والاها وعلى اللجون. وما زال هذا الدير عامرًا وقد جدد في أدوار مختلفة، وفيه يقول مهلهل بن يوسف المُزَرّع:

نَهضت الى الطور في فتية ... سراع النهوض إلى ما أحب

كرام الجدود حسان الوجوه ... كهول العقول شباب اللعب

فأي زمان بهم لم يَسُرّ ... وأي مكان بهم لن يطب

أنخت الركاب على ديره ... وقضيت من حقه ما يجب

وأنزلتهم وسط أعنابه ... وأسقيتهم من عصير العنب

وأحضرتهم قمرًا مشرقًا ... تميل الغصون به في الكُثُب

نحـــث الكئـــوس بأهزاجـــه ومرســـوم أرمالـــه بالعجـــب
ومـــا بـــين ذاك حـــديث يـــروق وخـــوض لهـــم فـــي فنـــون الأدب
فيـا طيـب ذا العيش لـو لـم يُـزل ويـا حـسن ذا السعد لـو لـم يَغِـب

«دير عَمان» قال ياقوت: بنواحي حلب وتفسيره بالسريانية دير الجماعة قال فيه الحمدان بن عبد الرحيم الحلبي:

ديـــر عمـــانٍ وديـــر ســـابان هجـــن غرامـــي وزدن أشـــجاني
إذا تـــذكرت منهمـــا زمنًـــا قـــضيته فـــي غُـــرام ريعـــاني

ومرَّ به أبو فراس بن أبي الفرج البُزاعي فقال ارتجالًا:

قـد مررنـا بالـدير ديـر عَمانـا ووجـــدناه داثـــرًا فـــشجانا
ورأينـــا منـــازلًا وطلـــولًا دراســـات ولـــم نـــرَ الـــسكانا
وأرتنـا الآثـار مـن كـان فيهـا قبـل تفنـيهم الخطـوب عيانـا
فبكينـا فيـه وكـان علينـا لا عليـه لمـا بكينـا بُكانـا
لـست أنـسى يـا ديـر وقفتنـا فيـ ـــك وإن أورثتنـي النـسيانا
مـن أنـاس حَلـوك دهـرًا فخلَّـو ك وأمـسوا قـد عطلـوك الآنـا
فَـرقتهم يـدُ الخطـوب فأصبحـ ـتَ خرابًـا مـن بعـدهم أسـيانا
وكـذا شـيمةُ الليـالي تميـت الـ ـحي منـا وتهـدم البنيانـا
حَرَبـا مـا الـذي لقينـا مـن الدهـ ـر ومـاذا مـن خطبـه قـد دهانـا
نحـن فـي غفلـة بهـا وغـرور وورانـا مـن الـردى مـا ورانـا

ولا نعرف عنه شيئًا الآن.

«دير فاخور» وهو الموضع الذي تعمد فيه المسيح من يوحنا المعمدان كما في كتب الجغرافية.

«دير فِيق» هو في ظهر عقبة فيق -عقبة تنحدر إلى الغور من أرض الأردن ومن أعلاها طبرية وبحيرتها- وهذا الدير فيما بين العقبة وبين البحيرة في لحف جبل يتصل بالعقبة منقور في الحجر، وكان عامرًا بمن فيه من الرهبان ومن يطرقه من السيار، والنصارى يعظمونه، واجتاز به أبو نُواس فقال في غلام نصراني فيه قصيدة منها:

بحجلك قاصدًا ما سرجان ... فدير النوبهان قدير فيق

وبالمطران إذ يتلو زبورًا ... يعظمه ويبكي بالشهيق

وهذا الدير غير عامر الآن.

«دير القاروس» قال ابن فضل الله: إنه على جانب اللاذقية من شمالها وهو في أرض مستوية وبناؤه مربع وهو حسن البقعة. وفيه يقول أبو علي حسن بن علي الغزي:

لم أنس في القاروس يومًا أبيضًا ... مثل الجبين يزينه قرع الدجى

في ظل هيكله المَشيد وقد بدا ... للعين معقود السكينة أبلجا

واللاذقية دونه في شاطئ ... بلوره قد زَيّن الفَيْروزجا

ولديَّ من رهبانه متنمس ... أضحى لفرط جماله متبرجا

أحوى أغنَّ إذا تردد صوته ... في مِسْمع رد احتجاج ذوي الحجى

لا شيءَ ألطف من شمائله إذا ... حث الشمول ولفظه قد لجلجا

فله وليوم الذي قضيته ... معه بكائي لا لربع قد شجا

«دير القديس سابا» إلى الجنوب الشرقي من أورشليم على بعد ثلاث ساعات ونصف عنها على الراجل وعلى انخفاض ٥٦٠ مترًا عنها عند الطريق المؤدي منها إلى البحر الميت على مقربة من وادي الراهب (النار) وعلى عدوة وادي قدرون إلى شمال بيت ساحور الشرقي. وهو أشبه بقلعة منيعة غربية الأبنية. ومن الدير إلى هضم الوادي ٢٧٥ ذراعًا فيصعد من الوادي إلى الدير بسلالم بعضها منقور بالصخر والآخر مبنى على شكل أدراج ولا يدخل إليه إلا بإذن البطريرك الأورشليمي. ورهبانه ستون راهبًا يعيشون عيشة تقشف منقطعين إلى الصلاة والصوم والعبادة، وفي كل يوم جمعة يبعث لهم دير القبر المقدس في أورشليم طعامهم مرة واحدة ولا يسمح للنساء أن يدخلنه، وتلك عادة منذ تشييده إلى اليوم لم تدخله امرأة، وقربه برج مار سمعان وهو دير خرب فيه بيت كبير يشرف على الدير القديس سابا على بعد خمس دقائق فيسمح للنساء أن ينظرن الدير الكبير من بيت هذا البرج وقربه دير على قمة جبل تاودوسيوس وهو عامر الآن وفيه رهبان ويسميه العرب دير عبيد (من مجلة النعمة).

«دير قِنّسري» على شاطئ الفرات من الجانب الشرقي من نواحي الجزيرة وديار مضر مقابل جرابلس (في الأصل جرباس) وجرابلس شامية، وبين هذا الدير ومنبج أربعة فراسخ وبينه وبين سروج سبعة فراسخ، فهو دير كبير كان فيه أيام عمارته ثلاثمائة وسبعون راهبًا، ووجد في هيكله مكتوبًا:

أيا دير قنّسري كفى بك نزهةً ... لمن كان بالدنيا يَلَذّ ويَطرَبُ

فلا زلتَ معمورًا ولا زلتَ آهلًا ... ولا زلت مخضرًا تُزار وتَعجِب

«دير كعب» كان من أديار الشام، وهو الذي جاء فيه المثل أطول من فراسخ دير كعب قال الشاعر:

ذهبت تماديًا وذهبت عرضًا كأنك من فراسخ دير كعب

«دير كفتون» ولعله المعروف اليوم بدير كفتين قال فيه ابن فضل الله: إنه ببلاد طرابلس مبني على جبل وهو دير كبير وبناؤه بالحجر والكلس في نهاية الجودة وبه ماء جارٍ وله حوض كبير مملوء من شجر النارنج يحمل نارنجه إلى طرابلس يباع فيها ويرتفق بثمنه الرهبان وله مستشرف مطل على البلاد والمزارع، ومنه مكان يشرف عن بعد على البحر، ولهذا الدير صيت جائل وسمعة مذكورة وبه رهبان كثيرو العدد والنصارى تقصده وتحمل إليه النذور، ويقصده كثير من أهل البطالة واللهو للتفرج به والتنزه فيه، وفيه يقول الطيبي:

أدير كفتون تُكفي كل نائبةٍ من الهموم وتلقى كل سراء
من كل خضراء في الأشجار مائسةٍ وكل صهباء في الكاسات حراء
حللت في دير كفتون فلا عجب إذ مت سكرًا بحمراء وخضراء

«دير مارون» قال المسعودي في التنبيه والإشراف: وفي أيام موريق من ملوك الروم ظهر رجل من أهل حماة من أعمال حمص يعرف بمارون إليه تنسب المارونية من النصارى. وأمرهم مشهور بالشام وغيرها أكثرهم بجبل لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرة النعمان، وكان له دير عظيم يعرف به شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان، وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الأعراب وحيف السلطان وهو بقرب نهر الأرنط (العاصي) نهر حمص وأنطاكية. وقال ابن بطريق: وكان في عصر موريق ملك الروم راهب يقال له مارون وكان يقول: إن سيدنا المسيح طبيعتان ومشيئة واحدة وفعل واحد وأقنوم واحد، وأكثر من تبعه على مقالته تلاميذه

القائلون به أهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من أرض الروم فسموا الموازنة، ولما مات مارون بنى أهل حماة ديرًا بحماة وسموه دير مارون. قلنا: ولعله دير آخر غير الدير الذي نشأ فيه مارون شرقي حماة وشيزر. وقد خرب دير مار مارون سنة (٧٥) للهجرة لما غزا موريق وموريقان بلاد الشام وحملا على هذا الدير وقتلا منه خمسمائة راهب وهدما بنيانه، ثم تحولا من هناك إلى قنسرين والعواصم فقتلا الأهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيا عن أحد من أتباع مار مارون. وقال الدويهي: كان قرب دمشق فوق نهر يزيد دير على اسم القديس مارون. قال: ولقد استدللنا برسومه وأطلاله المائلة إلى اليوم على عظمه وشرفه ذكره ابن الحريري المؤرخ فيما كتبه عن الحاكم بأمر الله سنة (٣٨٦). ولا أثر اليوم لدير حماة ولا لدير دمشق.

«دير مار مروثا» وهو دير صغير بظاهر حلب في سفح جبل جَوْشن على نهر العُرجان (العوجان)؟ وكان سيف الدولة محسنًا إلى أهله وقلما مر به إلا نزله ووهب لأهله هبة كبيرة وكان يقول: رأيت أبي في النوم يوصيني به -وفي رواية والدته- وله بساتين قليلة ومباقل وفيه نرجس وبنفسج وزعفران ويعرف بالبيعتين؛ لأنه فيه مسكنين للرجال والنساء. قال الخالدي وإياه عني الصنوبري بقوله:

كأنمـا اختيـرت الفـصوص لـه ... بـين عقيـق وبـين فيـروزَجْ
أمـا تـرى البيعتـين أُفردتـا ... بمفـرد الأقحـوان والمُـزْوَجْ
أثوابـه المـزن كيـف مـا اتـصلت ... ونـاره البـرق كيـف مـا أجّـجْ

هذا ما رواه ابن فضل الله في هذا الدير، وفي رواية ياقوت أن هذا الدير ذهب ولا أثر له استجد في موضعه مشهد زعم الحلبيون أنهم رأوا

الحسين بن علي رضى الله عنه يصلي فيه فجمع له المتشيعون بينهم مالًا وعمروه أحسن عمارة وأحكمها وفيه أيضًا يقول بعض الشاميين:

بدير مارت مروثا الـ ـشريف ذي البيعتين
والراهب المتحلي والقس ذي الطمرين
إلا رثيت لصب مشارف للحين
قد شفه منك هجر من بعد لوعة بين

قال: وفيه يقول الحسين بن علي التميمي:

يا دير مارت مروثا سقيت غيثًا مغيثا
فأنت جنة حسن قد حزت روضًا أثيثا

«دير مارت مريم» قال الخالدي: وبالشام دير يقال له: مارت مريم وهو من قديم الديرة ونزله الرشيد وفيه يقول الشاعر:

نعم المحل لمن يسعى للذته دير لمريم فوق الظهر معمور
ظل ظليل وماء غير ذي أسن وقاصرات كأمثال المها حُور

«دير الماطرون» يروى لزيد بن معاوية فيه:

ولها بالماطرون إذا أكل النمل الذي جمعا
حرقة حتى إذا ربعت ذكرت من جلق بيعا
في قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد ينعا

قال أبو محمد حمزة بن القاسم: قرأت على الحائط من بستان الماطرون هذه الأبيات:

أرقت بدير المارطون كأنني لساري النجوم آخر الليل حارس

وأعرضت الشعرى العبور كأنها معلق قنديل عليها الكنائس
ولاح سهيل عن يميني كأنه شهاب نجاة وجهه الريح قابس

ولم يبق في الوجود من هذا الدير غير اسمه.

«دير المصلبَة» وهو بظاهر مدينة القدس الشريف في شامها بغرب، وهو دير رومي قديم البناء بالحجر والكلس محكم الصنعة مونق البقعة في بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين بإزاء قرية تجري على الدير بمرسوم السلطان. قال في مسالك الأبصار بعدما تقدم: وهذا الدير دخلت إليه ورأيته وفيه صور يونانية في غاية من محاسن التصوير وتناسب المقادير وصعدت إلى سطحه فرأيت له حسن مُشْتَرَف وسعة فضاء ورهبانه من الكرج. قال: وكان أُخذ وجعل مسجدًا للمسلمين ثم أعيد ديرًا للنصارى وتُوصل إلى هذا بكتاب أخضر من ملك الكرج وأعان عليه قوم آخرون. قال: وحدثه رهبانه بأن على ديرهم وقوفًا في بلادهم منها خيول سائمة تُحمل أثمان نتاجها إليهم وأنه يجيء منها في كل سنة قدر جليل وأنها تنفق في مصالح الدير وابن السبيل، وفيه يقول أبو علي حسن الغزي:

يا حسن أيام قطعت هنيئة بالدير حيث التين والزيتونُ
دير المصلبة الرفيعُ بناؤه تَفدي عبير ترابه دَارين
في ظل هيكله وأسراب الدّمى مَجْلُوة والمرمرُ المسنونُ
ومزنرين إذا تلوا إنجيلهم وتعطفوا فحمائم وغصونُ
غزلانُ وجرةَ هم وبين جفونهم لأسود بيشة إن عَرَضنْ عرين
نزعوا القلانس والمسوح فزحزحت منهن عن غرر الشموس دجون
وسعوا بكاسات المدام وما دروا أن للكئوس الدائرات جنونُ

فقضيت بينهم زمانًا لم يزل عندي إليه تشوق وحنينُ
تلك المنازل قد سفحن مدامعي لا مصرُ قاطبةً ولا جيرُونُ

ولا يزال هذا الدير عامرًا وهو للروم الأرثوذكس.

«دير مرقس» الغالب أنه كان من النواحي حلب ورد في شعر حمدان بن عبد الرحيم في قوله:

أسكان عرشين القصور عليكم سلامي ما هبت صبًا وقبول
ألا هل إلى حث المطي إليكم وشم خزامي حربنوش سبيل
وهل غفلات العيش في دير مرقس تعود وظل اللهو فيه ظليل
إذا ذكرت لذاتها النفس عندكم تلاقى عليها زفرة وعويل
بلاد بها أمسى الهوى غير أنني أميل مع الأقدار حيث تميل

«دير مُرّان» هذا اسم لديرين في الشام كان أحدهما على الجبل المشرف على كَفَرْ طاب قرب المعرة يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز (رض) وهو مشهور بذلك كان يزار في عصر ياقوت، والثاني بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة وبناؤه بالجص وأكثر فرشه بالبلاط الملون، وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجينة دقيقة المعاني والأشجار محيطة به. روى ذلك الخالدي أما محل الدير فمحل خلاف منذ القديم، قال ابن فضل الله: والناس في اختلاف أين كان دير مران؛ فمن قائل: إنه كان بمشارق السفح نواحي برزة والأكثر على أنه كان بمغاربه وأن مكانه الآن (القرن الثامن) المدرسة المعظمية، وأما الذي كان بمشارق السفح فهو دير السائمة المسمى دير صليبا. وروى صاحب قضاة دمشق قال: لما وافى المأمون دمشق سنة خمس عشرة ومائتين نزل بدير مران ومكانه المعروف بالسهم

إلى قرب النيرب خارج دمشق في سفح قاسيون، فعمر المأمون هذا الدير وبنى القبة التي فوق الجبل وهي المعروفة الآن بقبة النصر ولم يعثر على أثر لهذا الدير العظيم. وكان هذا الدير لقربه من دمشق ولجمال موقعه مقصد الملوك والراغبين في النزهة والشراب. قال ابن بطريق: إن كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسكنون فيها. وقد نزل يزيد بن معاوية دير مران ومات فيه الوليد واجتاز به الرشيد والمأمون، وقد أكثر الشعراء من ذكره حتى نسب ليزيد قوله، وقد أصاب المسلمين سباء بأرض الروم:

وما أبالي بما لاقت جموعهم ... بالغذقدونة من حمى ومن مُوم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقًا ... بدير مران عندي أم كلثوم[1]

ومن جملة ما قيل في هذا الدير قول أبي بكر الصنوبري وهو:

أمرُّ بدير مران فأحيا ... وأجعل بيت لهوي بيت لهيا
ويبرد غُلتي بردَى فسقيًا ... لأيام على بردى ورعيا
ولي في باب جيرون ظباء ... أُعاطيها الهوى ظبيًا فظبيا

(١) الموم: البرسام، وأم كلثوم هي زوجة يزيد بنت عبد الله بن كريز والغذقدونة ويروى الخذقدونة وهو الثغر الذي فيه المصيصة وطرسوس وأذنة وعين زربة.
وروى البكري هذه الأبيات في دير سمعان باختلاف قليل قائلًا: إن معاوية كان وجه ابنه يزيد لغزو الروم فأقام يزيد بدير سمعان ووجه الجيوش، وتلك غزوة الطوانة فأصابهم الوباء فقال يزيد بن معاوية:

أهون علي بما لاقت جموعهم ... يوم الطوانة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقًا ... بدير سمعان عندي أم كلثوم

فبلغ شعره معاوية فكتب إليه: أقسم بالله لتلحقن بهم حتى يصيبك ما أصابهم، فألحقه بهم. والاختلاف في رواية هذين البيتين وإنشادهما مع تبدل يسير تارة في دير سمعان وأخرى في دير مران يوقع الشك في نسبتهما ليزيد وحامل على أن القصة مفتعلة.

ونعم الدار داريا ففيها حلالي العيش حتى صار أريا
سقت دنيا دمشق ليصطفيها وليس يريد غير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها خلال حدائق يُنبتن وشيا
مظللة فواكهها بأبهى الـ ـمناظر في نواظرها وأهيا
فمن تفاحة لم تُعد خدًا ومن رمانة لم تُخط ثديا

وله فيه:

متى الأرحل محطوطة وعير الشوق مربوطة
بأعلى دير مران فداريا إلى الغوطة
فشطي بردى في جنـ ـب بسط الروض مبسوطة
رباع تهبط الأنها ر منها خير مهبوطة
وروض أحسنت تكتيـ ـبه المزن وتنقيطه

وقال فيه الحسين بن الضحاك:

يا دير مرّان لا عُريت من سكنٍ قد هبطت لي حَزَنًا يا دير مرانا
حث المدام فإن الكأس مترعة مما يهيج دواعي الشوق أحيانا

وقال الببغا أبو الفرج عبد الواحد:

ويوم كأن الدهر سامحني به فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه أفراس الصبا بارتياضنا إلى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطر الـ نسيم بأنفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ومن نهر بالغيض يجري إلى نهر
وفي الهيكل المعمور منه انتزعتها وصبحي حلالًا بعد توفية المهر

ونزهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها أشرب التبر بالتبر

وقال عون الدين الحلبي الكاتب المتوفى سنة (٦٥٦): وهو مما يستأنس به من أن هذا الدير كان عامرًا إلى أواسط القرن السابع وفيه ذكر ديرين آخرين وهما دير متى ودير حنينا، والأول ليس له ذكر في ديرة الشام بل هو من أديار الموصل، ولما كانت القصيدة في التشوف إلى الشام استلزم ذلك أن يكون دير متى من جملة أديارها التي ضاع اسمها ورسمها قال:

يا سائقًا يقطع البيداء معتسفًا بضامر لم يكن في سيره واني
إن جزت بالشام شم تلك البروق ولا تعدل بلغت المنى عن دير مران
واقصد علالي قلاليه تلاق بها ما تشتهي النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام إذا ماست فيا خجلة المران والبان
وكل أسمر قد دان الجمال له وكمل الحسن فيه فرط إحسان
ورب صدغ بدا في الخد مُرسَله في فترة فتنت من سحر أجفان
فليت ريقته وردي ووجنته وردي من صدغة أنسي وريحاني
وعج على دير متى ثم حي به الـ ـربان بالطرس فالربان رباني
فهمت منه إشارات فهمت بها وصنت منشورها في طي كتمان
واعبر بدير حنينا وانتهز فرص الـ ـلذات ما بين قسيس ومطران
واستجل راحاتها تحي النفوس إذا دارت براح شمامیس ورهبان

«دير المُغان» بحمص في خربة بني السمط تحت تلهم، وهو دير عظيم الشأن عندهم كبير القدر فيه رهبان كثيرة وترابه يختم عليه للعقارب ويهدى إلى البلاد قاطبة وتتنافس النصارى في موضع مقبرته (ياقوت).

«دير ميامس» نقلت من ياقوت: بين دمشق وحمص على نهر يقال له ميامس وإليه نسب، وهو في موضع نزه، وبه شاهد على زعمهم من حواريي عيسى عليه السلام زعم رهبانه أنه يشفي المرضى. وكان البطين الشاعر قد مرض فجاءوا به إليه يستشفي فيه فقيل: إن أهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد واتفق أن مات عقيب ذلك فشاع بين أهل حمص أن الشاهد قتله وقصدوا الدير ليهدموه وقالوا: نصراني يقتل مسلمًا لا نرضى أو تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها، فرشا النصارى أمير حمص حتى رفع عنهم العامة فقال شاعر يذكر ذلك:

يا رحمتا لبُطَيْن الشعر إن لعبت ... به شياطينه في دير ميماس

وافاه وهو عليل يرتجي فرجًا ... فَرَدَّه ذاك في ظلمات أرماس

وقيل شاهد هذا الدير أتلفه ... حقًّا مقالة وسواس وخناس

أأعظم باليات ذات مقدرة ... على مضرة ذي بطش وذي باس

لكنهم أهل حمص لا عقول لهم ... بهائم غير معدودين في الناس

وحكي أن أبا نواس لما دخل حمص مارًّا بها دعاة فتى من أدبائها إلى دير ميماس ودعا معه أشجع السلمي فجلسوا يشربون وأبو نواس ينشدهم له ولغيره، فقال أشجع:

صبحت وجه الصباح بالكأس ... ولم تعقني مقالة الناس

ونحن عند المدام أربعةٌ ... أكرمُ صحب وخير جلاس

نديم حمصية معتقةٌ ... على نسيم النسرين والآس

ولم يزل مطربًا ومنشدنا ... أبو نواس في دير ميماس

«دير نجران» بأرض دمشق من نواحي حوران ببصرى وهو دير عظيم عجيب العمارة، ولهذا الدير يُنادى في البلاد من نذر نذرًا لنجران المبارك

والمنادي راكب فرس يطوف عامة نهاره في كل مدينة مناد، وللسلطان على الدير قطيعة يأخذها من النذور التي تهدى إليه.

«دير النقيرة» في جبل قرب المعرة ولا نعرف عنه شيئًا.

«دير هِزْقِل» قال الخالدي: هو بالشام وذكره دعبل بن علي حين هجا أبا عباد كاتب المأمون فقال:

فكأنه من دير هِزْقِل مُفْلَتٌ ... حنق يجر سلاسل الأقياد

قال ابن فضل الله: ولا أدري في قرب أي مدينة هو.

«دير يونس» ربما كان في جهات الرملة في فلسطين وقد قيلت فيه قصائد كثيرة، وما ندري إن كان اختلط بدير في جهات الموصل على جانب دجلة الشرقي وموضعه يعرف بنينوى، ونينوى هي مدينة يونس.

هذا ما أمكن تلقفه عن الأديار في الإسلام وكان قبل الإسلام أديار مهمة ضاعت أخبارها ولا يستغرب ما قيل في هذه الأديار من الأشعار في سالف الأعصار. فقد كان المسلمون يختلفون إلى الديرة يجعلونها محال النزهة؛ لأنها في أماكن نزهة على الغالب تخير بانوها مواقعها، وبالنظر لتحريج الحكومات الإسلامية في الخمور وإباحة شربها وبيعها لأهل الذمة كان المولعون بالشراب من أهل الشأن وخلعاء الشعراء والأباء يغشون الأديار فيجدون صدورًا رحبة فيشربون ويطربون، ولذلك خص الشعراء تلك الأديرة بأشعار لطيفة وقصائد ربما كان فيها شيءٌ من المبالغة ومنها ما نبا عن طور الأدب اليوم؛ ولكنه كان من المألوف في تلك العصور.

وفي ديار الشام اليوم ولا سيما في لبنان وبعض أنحاء فلسطين أديار عظيمة منها ما ورد ذكره في الجريدة التي كتبناها هنا، ومنها ما هو من البناء الجديد وفيها المهم بنيانه وهندسته أشبه بقلاع منه بطرابيل وصوامع للمنقطعين للعبادة والتبتل، وقد ظهر في يوم ٢٧ أيار ١٩٤٥ وقد قذفت فرنسا مدينة دمشق بحمم مدافعها أن معظم كنائس دمشق للاتين كان فيها ورشاشات وسلاح قاتلوا به السكان وعلى رأسهم الراهبات والرهبان!